محتويات البحث

مقدمة البحث

تجمع روايات الباحثين على أن إسم القارة الاوربية مشتق من اسم الأميرة الفينيقية يوربا ابنة الملك الفينيقي آجينور والذي رآها زيوس هي وزميلاتها على شاطئ مدينة صور فأجب بجمالها وأحبها. وحسب الميثولوجيا اليونانية فإن زيوس أخدها إلى جزيرة كريت، ومن بعد حادثة الخطف سميت اليونان بإسم يوربا وبحلول العام 500 ق م إمتد المقصود من الكلمة ليشمل الأراضي الواقعة شمال اليونان [1] فكان لهذا الإسم أثر عميق في نفوس الأوربين فأصبحوا معتزين بإنتمائهم الجغرافي.

وقد انتهى هذا الانتماء في تبلوره في أرقى أشكاله بالإتحاد الأوربي لكن بالرجوع إلى القرن التاسع عشر أوكما يطلق عليه بقرن القوميات الأوربية ففيه بزغ فجر الحركة القومية التحررية فكان للغة والدين والوطن والثقافة أثر عميق في تحديد هذا المكون فبزغ الشعور بالعداء للغاصب الأجنبي.

وكان لهذا الشعور تأثير قوي على جوانب متتعدة منها سياسية وجغرافية وفكرية وثقافية، فأصبح الدول تنهج سياستها مراعاة لمصالحها القومية .

فقد تعرضت القارة لمجموعة من الأحداث والتغيرات السياسية والاقتصادية والفكرية ، كان لها تأثير على سياسة وجغرافية أوربا، ثم كان للثورة الفرنسية وما حملته من أفكار وآراء وصلت إلى كل شعوب أوربا وأتت حملة نابليون لتضيف لهذا التأثير طابعا إضافيا فنمي الشعور بالعداء والكره تجاه الغاصب الأجنبي، فأحدثت القومية تغيرات جذرية طالت ميادين مختلفة سياسية وفكرية وثقافية فكان لها دور فعال في وحدة الشعوب بعد أن ظلت مفرقة ومتطاحنة فيما بينها تمثلت في الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية اللتان بلغتا شوطا مهما في تحقيقها . ويدفعنا موضوع القومية إلى الوقوف عند مجموعة من تساؤلات و محاولة إيجاد إيجابات تاريخية دقيقة لها و يمكن إختزالها فيما يلي من التساؤلات المركزة.

ماهي القومية؟ وما هي المكونات التي تحدد كيانها ؟ وماهي الجدور التاريخية التي أسست هذا الشعور؟ وما هي التأثيرات التي تبلورت على المستوى السياسي، الجغرافي والفكري والثقافي؟ وما هو الشكل الذي إتخذته القومية الفرنسية؟ وما كان لها من تأثير على باقي شعوب أوربا؟ وإلا أي حد ساهمت القومية في الوحدتين الألمانية والإيطالية؟

كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها بشكل دقيق و مركز رغم أن الحديث عن الحركات القومية بأوروبا يحتاج منا إلى ضرورة التفصيل في الموضوع و الوقوف عند أهم أفكاره و محاوره .

[1]) أشرف صالح محمد السيد، أصول التاريخ الأوربي الحديث الطبعة الإلكترونية الأولى،الكويت،2009،ص8.

المبحث الأول:

القومية ، مفهومها، أبعادها و جذورها التاريخية.

1) مفهوم القومية بأوروبا:

عند الحديث عن القومية أو بالأحرى لفض كلمة قومي أو قومية ، أو عند وصف شخص ما بأنه ذو توجه قومي، أو القول بان بلد ما قامت بعمل ما من منطلق أو دافع قومي يكون وقع الكلمة على أسماعنا مقبول جدا ومفهوم بشكل جيد ولا يحتاج إلى أي توضيح ، ولكن لو طلب منا إعطاء تعريف محدد لهذا المفهوم فسنجد أنفسنا وقد دخلنا متاهات منهجية معقدة ، وبالتالي عدم القدرة على الخروج بمفهوم محدد وشامل يغطي فكرة ومعنى هذه الكلمة، وقد يكون من المستحيل التوصل إلى تعريف علمي قصير دقيق يتألف من جملة أو جملتين، ويتضمن كل ما تنطوي عليه الفكرة القومية ويستثني ويستبعد كل ما هو خارج عنها .

ويعود ذلك -باعتقادنا- إلى أن قومية كل أمة من الأمم قد عبرت عن نفسها بشكل يخالف الآخرين كما أنها تغيرت وتعدلت بمرور الزمن، فالقوميات الأمريكية لا تشابه القوميات الأوربية والآسيوية مشابهة تامة لفقدانها الأصول التاريخية العميقة ولاختلاف ظروفها المادية والسياسة والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية، بالإضافة إلى العوامل التاريخية المتباينة التي دخلت في تكوين كل أمة وفكرتها القومية ، فتأخر الوحدتين الألمانية والإيطالية من حيث الزمن واختلاف تاريخهما، جعل قوميتهما تختلفان نوعا ما عن القوميتين البريطانية والفرنسية ،اللتين سبقتاهما، ونرى أن الشعور القومي الذي ظهر في فرنسا الثورية بين 1789م و1790م، والذي تأثر بتفكير القرن الثامن عشر كان أشد إنسانية من شعورها القومي في سنة الإرهاب (1793م) كما أن قومية ألمانيا في عهد بسمارك (1871م) تعتبر معتدلة إذا ما قورنت بالقومية في عهد رايخ هتلر (1939) [(2)].

وقد حاول الباحثون في جميع أنحاء العالم إيجاد مفهوم محدد للقومية يساعد ولو بدرجات بسيطة بتقديم تعريف مقبول ولو منهجياً وذلك لأغراض الدراسات السياسية ولكنهم في النهاية اضطروا من اجل النهوض بدراستهم السياسة أو تأثراً بفلسفتهم السياسية إلى وضع تعاريف خاصة بهم ،ولما كانت الأغلبية الساحقة من الباحثين في القومية هم أيضا من دعاة قومية معينة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فإن كلا منهم تأثر بطبيعة الحال بالقضية التي يدعو إليها وجاءت مواطن التركيز في تعريفه بما يتفق والظروف الموضوعية المحيطة بهذه القضية ، وبذلك لم يتحقق الوضوح اللازم إلا نادرا حيث نشأت عقبات كثيرة عرقلت سير عملية البحث العلمي .

---

2) بويد شيفر ،ترجمة عدنان الحميري، القومية - عرض وتحليل ، (بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1966) ص67

ومن التعريفات التي حاولت تحديد مفهوم القومية التعريف الذي اتفق عليه كل من رينان Renan و تريتشكه Treitschke وباري Barres وزنكويل Zanguill الذي ينظر إلى الامة على اعتبار أنها " كائن عضوي هيجلي، أي عبارة عن روح أو مبدأ روحي ينبعث من تاريخ الإنسان وطبيعته" [3].

وقد يدل هذا التعريف على رمزية خالصة مرفوضة موضوعياً إلا أن الأهمية التاريخية المعاصرة لهذا الرمز لا يمكن إغفالها، فالقوميون في كل مكان يعتبرون الأمة كائناً سامياً يعلو على الطبيعة، أو شيئا يسمو على الأفراد والمؤسسات التي يتألف منها.

أما هكسلي Huxle وهدون Haddon فيعرفان الأمة بأنها (مجتمع ألف بينه اعتقاد مشترك بالنسبة لأصوله ، ومشاعر عدائية مشتركة بالنسبة لجيرانه)[4].

ويعرف الإيطالي مانشيني Mancini القومية بأنها (مجتمع طبيعي من البشر يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض والأصل ، والعادات واللغة من جراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي) [5]، ويعتبرهذا التعريف من أهم وأشهر التعريفات التي قدمت للقومية باعتباره حدد السمات والعناصر الأساسية للقومية .

أما بالنسبة للمفكرين العرب فقد حاول العديد منهم وخصوصا دعاة القومية العربية وضع مفهوم محدد للقومية يتناسب مع الحالة العربية ومعطياتها ، ومن هذه التعريفات تعريف الدكتور جورج حنا حيث يعرف القومية بأنها (عقد اجتماعي في شعب له لغة مشتركة ، وجغرافية مشتركة ، وتاريخ مشترك ، ومصير مشترك ، ومصلحة اقتصادية مادية مشتركة ، وثقافة نفسية مشتركة ، وهذا العقد يجب أن يكون فيه كل هذه المقومات مجتمعة) [6].

أما الدكتور منيف الرزاز فهو يعرف القومية بأنها (الرابطة التي تربط أبناء الأمة الواحدة في الوطن الواحد) [7].

و**القومية** هي إيديولوجية وحركة اجتماعية سياسية نشأت مع مفهوم الأمة في عصر الثورات الثورة الصناعية، الثورة البرجوازية، والثورة الليبرالية في الفترة من أواخر القرن الثامن عشر.

وقد ويصف ساطع الحصري، كاتب رائد في الفكر القومي العربي العناصر الأساسية في تكوين القومية هي وحدة اللغة ووحدة التاريخ، وما ينتج عن ذلك من مشاركة في المشاعر والمنازع، وفي الآلام والآمال.

ويلاحظ من خلال التنوع في هذه التعريفات ، الإشكالية الكبيرة في وضع مفهوم محدد يمكن اعتماده كأساس للانطلاق في دراسة قومية ما، حيث يظهر المنحى الذاتي أو الخصوصية القومية في كل ما ذكر من تعاريف، ويظهر ذلك وبشكل أوضح إذا ما تناولنا ما يسمى بالمفهومين الألماني والفرنسي

---

3) المصدر السابق نفسه ص 70

4) نفس المصدر ص 70.

5) ساطع الحصري ، ما هي القومية ، (بيروت ، دار العلم للملايين 1963) ، ص40.
6) جورج حنا ، معنى القومية العربية (بيروت ، دار الثقافة) ص 21 .
7) منيف الرزاز ، تطور معنى القومية (بيروت دار العلم للملايين ،1960) ص16.

في تعريف القومية حيث يركز المفهوم الألماني على مسألة اللغة وأهميتها في بناء القومية، بينما ترى القومية الفرنسية أن مشيئة العيش المشترك هي محور القومية ومعيارها، ويظهر من هذين المفهومين الهدف الذي يسعى إليه دعاة كل قومية من هاتين القوميتين، حيث تسعى القومية الألمانية إلى ضم جميع المتكلمين باللغة الألمانية في أوروبا، ومنهم سكان الالزاس إلى الدولة الألمانية، بينما نرى في الجانب الآخر أن القومية الفرنسية وهي التي سبقت القومية الألمانية بقرن من الزمان قد أتمت وحدتها السياسية بالاستيلاء على بعض البلاد التي لا يتكلم أهلها الفرنسية ومنها طبعا منطقة الألزاس(8).

وخلاصة الأمر أن القومية تظهر بالشكل الذي يريده القوميين لها، وقد لا تكون فكرة خالصة ثابتة، وإنما تجمعات متباينة من العقائد والظروف، لها أساليبها الخاصة في الاحتفاظ ببقائها وفي التحول لا إلى مجرد حقيقة، بل إلى أمر واقعي كذلك، والحقيقة أن الخيال والواقع والصواب والخطأ عناصر تختلط مع بعضها اختلاطاً شديداً في القومية الحديثة، ولذلك فإن الأسلوب الوحيد لإدراك فحوى القومية هو تحديد العقائد، بغض النظر عن صحتها أو عدم صحتها ، والظروف المتوفرة فيها، وكما يقول هيرتز في تعريفه للقومية:(أن القومية فكرة ترى وجود شخصية جماعية للدولة تتباين من حيث إيحائها والشعور بذاتها وكثافتها وضخامتها بالنسبة للدولة، فقد تمثل دولة متحدة منقرضة أو دولة متحدة قائمة . وقد تتجه نحو إقامة دولة متحدة في المستقبل وهي تعتمد في هذا كله على الخصائص الطبيعية الأصيلة التي تكون شخصيتها وتبرر ادعائها). (9)

2) **الجذور التاريخية للقومية الأوروبية:**

اختلف الباحثون في الجذور التاريخية للقومية وبداية نشأتها وانقسموا إلى مجوعتين:

الأولى يعتبر أصحابها أن الشعور القومي ظاهرة طبيعية ملازمة للإنسان منذ أن وجد المجتمع البشري وأن بعض سمات القومية قديمة قدم الإنسانية نفسها، فيذهب كون مثلاً إلى أن التاريخ على مر العصور شهد بذور الشعور القومي في التمسك العميق من جانب الناس بأرضهم وتقاليدهم والسلطة القائمة في إقليمهم، ويذهب آرنست باركر في إلى القول بوجود أمم في أوروبا قبل بداية التاريخ المكتوب.[10]

أما أصحاب المجموعة **الثانية** من الآراء فيذهبون إلى أن القومية ظاهرة حديثة نسبياً لم تعرفها المجتمعات البشرية القديمة فيقول برنارد رسل مثلاً أن معظم الناس في العصر الحديث يقبلون القومية على أنها طبيعية ولا يدركون إلى أي حد هي جديدة، ولعلها بدأت أول ما بدأت بجان دارك (في حرب المائة عام) ثم تلاشت في فترة الحروب الدينية وولدت من جديد في عهد الثورة الفرنسية، وي ذكر هذا الفريق أن الرومان مثلا كانوا يعرفون القومية أو أن الإغريق كانوا أمة واحدة.

ويختلف أصحاب هذا الرأي في ما بينهم حول البدايات الحقيقية للقومية في أوروبا، فمنهم من يرى أن المشاعر التي ظهرت في أواخر القرون الوسطى في الممالك التي توحدت في أوروبا أو كانت في

---

8) ساطع الحصري ، آراء وأحاديث في القومية العربية (بيروت ، 1959) ص67.
9) بويد شيفر ، القومية ، مصدر سبق ذكره .
10) عبد الكريم أحمد ، القومية والمذاهب السياسية (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للنشر ، 1970) ص86

طريقها إلى الوحدة داخل حدود إستراتيجية معينة تضم أقواماً تسود بينهم لغة رئيسية واحدة هي البداية الحقيقية لظاهرة القومية .

ومنهم من يذهب إلى أن القومية بدأت تظهر قبل ذلك، فيذهب أوجست تيري إلى القول أن الروح القومية الفرنسية كانت قد استيقظت فعلا في القرن التاسع الميلادي، ويعزو لونجتون بداية اليقظة إلى أوائل القرن الثاني عشر ويؤكد رانكه أنها بدأت بعد ذلك بقرن كامل، أي في القرن الثالث عشر . بينما يؤكد جيزو وميشليه وكثيرون غيرهم أهمية حرب المائة عام في القرنين الربع عشر والخامس عش.

والشعور بالقومية أقدم من الشعور بالوطن لأن الأقوام عاشت في العصور الصيد ثم الرعي منتقلة بغير وطن محدد، وهي لم تعرف الوطن إلا بالاستقرار بعد اكتشاف الزراعة ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن قومية إلا مقارنة بظهور درجة كافية من التنظيم الاجتماعي والسياسي داخل المجموعات البشرية الذي يجعل كلا منها متماسكة ومدركا لضرورة تماسكه ولأسباب هذا التماسك والاختلاف عن المجموعات البشرية الأخرى فالقومية أقدم نشأة من الوطنية والوطنية أكثر رقيا من القومية لأن المدينة لا تظهر حقا إلا ببداية حياة الإستقرار[11].

ولم يكن تاريخ القوميات مرتبطا بالأوطان في عصور الهجرات الكبرى فيما قبل التاريخ وفي العصر القديم والوسيط وجود قبائل رحل كانت تجمعهم وحدة الدم والانتماء القبلي ولا مجال للوطن في تحديد انتمائهم، فالعثمانيون قد دخلوا آسيا الصغرى في أوائل القرن 13م، كقبيلة من القبائل التي كانت تنزح من مناطق الاستبس في آسيا نحو الأناضول واستقروا ببلاد السلاجقة ، إضافة إلى تحركات قبائل الأطلول، التتار،المغول، والوندال.....

ولعل أبرز مثال عن القوميات التي كانت تعيش بلا وطن نجد يهود العالم أو ما يعرف باليهود الشتات قبل احتلالهم للأراضي الفلسطينية فالقوميات القديمة لم يكن يجمعها رابط الوطن بل كانت لوحدة الدم عامل أساسي في القومية، وكان لظهور الأديان دور فعال في توطيد وحدة الجنس البشري.

وظلت قومية تبحث دائما أبدا عن وطن تستقر فيه ومنه تبدأ حياتها المدنية بالمعنى المتعارف عليه وإلا هلكت واندثرت ، وكان مصيرها مصير مجتمعات النمل والنحل التي لا تعرف لنفسها رابط اجتماعي إلا وحدة العنصر التي قد تكون لازمة للبقاء على المستوى البيولوجي ولكنها غير كافية على المستوى الحضاري.

كانت القومية في صورها الأولى أقرب إلى الفطرة وأكثر سذاجة وعدوانية من الوطنية، لأن الحضارة بأي معنى حقيقي لم تبدأ باستقرار القوميات في أوطان ثابتة.[12]

وقد اقترن ظهور القومية الراقية بالوطنية أي من خلال ارتباطها بالوطن وبوجود دولة مركزية اعتمدت القوانين والمؤسسات عوض الأعراف والتقاليد وانتقل المفهوم من رغبة إلى المواطنين ومن العشيرة والقبيلة إلى دولة ومؤسسات.ولطالما عمدت الأقوام الغازية على طمس الشعور بالقومية عند الشعوب المفتوحة ودمجها صمن القومية الغازية فكانت تنسب الوطن إلى القوم ولا القوم إلى الوطن فلاا نجلو سيكسون يفتحهم لبريطانيا مابين 500 و600م.غيروا اسمها من بلاد البريتون إلى انجلاكد أي انجلترا بل اكتر من ذلك عملوا على إدخال الانجليزية بدلا من العالية التي كانت لغة السكان المحليين.

---

[11]) لويس عوض، دراسة في الحضارات، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى،1989،القاهرة،ص27.
[12]) نفس المرجع، ص:29.

وقد استمر استعمال كلمة بريطانيا كتغيير سياسي لإسترضاء السكان الأصليين البريتون، وقد سار الفرنجة على نفس المنوال فنسبوا اسمهم لفرنسا بعد ما كانت تعرف باسم غاليا أي بلاد الغال.

وقامت قبائل الألماني بإعطاء اسمهم لألمانيا، وهناك من يربط ظهور الحكومات القومية بانهيار الكيان السياسي للإمبراطوريات في العصور الوسطى والتي حلت محلها دول قومية في طور النمو التي استفادت من التفكك الذي شهده العالم المسيحي الأثيني. فاستطاعت أن تحول الولاء التام الذي كان يقدمه الأوربيين من قبل الكنيسة العامة الواحدة إلى أشكال التجمع الاجتماعي والسياسي في إطار وحدات قومية جمعتهم مجموعة من الروابط وبدلك تنافي الشعور الذي تبناه أوروبيو العصور الوسطى بوجود مصلحة أوربية عامة فتصدعت القومية الأوربية العامة، فأصبحت كل وحدة قومية تتصارع من اجل الحفاظ على مكتسباتها وضمان رخاء واستقرار أمتها حتى ولو كان على حساب وحدة قومية أخرى.

وقد شكل ظهور المذهب البروتستانتي سنة 1517م، تعميما للانقسام أوربا المسيحية حيث خرج أكثر من نصف الأوربيين عن المذهب الكاثوليكي . واتخذت كل دولة أوربية المذهب الذي كان يتماشى مع مصالحها وسياستها ، فبعد أن جمعت المسيحية الأوربيين على التآخي والسلم بل حتى في فترات الحروب وتبقى الحروب الصليبية التي جمعتهم تحت راية الصليب أكبر دليل فالمسيحية قسمت الأوربيين بعد انقسامها إلى مذهبين أساسين.

وقد استفادة أطراف إقليمية من هذا الانقسام فقد استطاع العثمانيون بفصل قوتهم العسكرية وحنكتهم السياسية من احتلال كل البلقان، وقد بلغ الانقسام الأوربي من خلال تحالف ملكا فرنسا فرنسوا الأول وابنه هنري الثاني مع العثمانية ضد ملك إسبانيا شارل الخامس.

فالقومية في نشأتها كانت عبارة عن عاطفة وشعور موحد ضد كل غاصب أجنبي تطبعه العفوية والغريزة بعيدا عن أي تنظير فلسفي أو فكري مذهبي ، وقد كان لفكرة الحرية دور فعال في انتقال القومية من كونها مجرد شعور إلى فلسفة ومن عاطفة إلى ضرورة

وقد كان للثورة الفرنسية أثر عميق في هذا التحول نظرا للأفكار والآراء سياسية التي نادت بها من ديمقراطية وحرية، فقد وجدت هذه الأفكار صدى لها في باقي أرجاء أوربا فوضعت أسس الحق العام وقواعد المجتمع الأوربي ، ولم تكتفي الثورة الفرنسية بالمناداة بحقوق الإنسان وحقوق القوميات بل تزعمت المشهد في الدفاع عن الحرية وحق الشعوب ، وقد طالت مجموعة من المفكرين وناشرين من أمثال كاميل دي مولان ولينخه بضرورة تدخل فرنسا لصالح الشعوب.

ولم تكتفي فرنسا بالدعوات بل أصدرت قرارات ففي آخر عام 1792م، انعقد المؤثر الوطني واتخذ قرارا في 19 تشرين الثاني باسم الأمة الفرنسية وهو{أنها تقدم إخائها ونجدتها لجميع الشعوب التي تريد استرداد حريتها وتكلف السلطة التنفيذية بإعطاء الأوامر الضرورية لنجدة الشعوب وحماية المواطنين الذين ينالهم أذى بسبب الحرية.}[13].

كما أسهمت حملة نابليون في نشر الأفكار الثورية الفرنسية بعيدا عما يثيروه الباحثون عن نوايا نابليون الاستعمارية، فإن القومية كانت قوة من القوى النشيطة في التاريخ المعاصرو يرجع أصلها إلى القرن السابع عشر وخاصة إلى القرن الثامن عشر. عصر الأنوار وعبادة العقل والتفكير الديمقراطي

[13]) نور الدين حاطوم، اليقظة القومية، ص104، ج1.

والحقوق الطبيعية، وحق تقرير المصير القومي وغيرها من هذه الأفكار العلوية التي يسربها فلاسفة الإنجليز في البدء ووسعها الفلاسفة الفرنسيون ، ثم انتشرت خلال القرن التاسع عشر في كل أوربا وأصبحت في القرن العشرين حركة واسعة شملت أنحاء العالم ومازالت أهميتها في قارتي آسيا وإفريقيا آخذة في النمو عاما بعد عام وستطل قائمة مادام أديم الأرض حق مهضوم وشعب مغلوب على أمره يطالب بحقه في الحياة.

و فيما سبق نخلص أن القومية مرت عبر عدة محطات تاريخية ، فالقومية التي كانت على أساس الانتماء القبلي أي برابطة الدم التي كانت تحدد جنسية القومية انتقل بعد دخول مفهوم الوطن أو المواطنة فأصبحت الحقوق السياسية تمارس على أساس الإقامة لا على أساس الانتماءات القبلية.

وقد عرفت القومية دخول محدد جديد فقد كان لظهور الديانات التوحيدية أثر بليغ تراجع القوميات المؤسسة على أساس الانتماء الجنسي والوطني ، فأصبحت الأخوة الدينية جامعة للشعوب المختلفة الأعراق والأوطان اختفت فيها الحدود السياسية وأصبح العالم المسحي مستوعبا في الأمة المسيحية بزعامة وتأطير البابا الذي كان له دور فعال في البدء بتجميع الأوربيين بعد أن فرقتهم جنسياتهم وأوطانهم، كما هو الشأن في العالم الإسلامي بحيث ضمت أجناس مختلفة فارسية و الأمازيغية واستمر الأمر حتى الخلافة العثمانية التي استطاعت استيعاب كل هذا الاختلاف وتجانس في قومية دينية لمدة أربع قرون تأخرت فيها دعوات للقوميي حتى 1800م.

ففي أوربا التي جمعتها الديانة المسيحية استطاعت بفضل تأثيرها من سحق القوميات العنصرية وإحلال القومية الدينية محل القومية العرقية لكن في الواقع الأمر لم تستطع القضاء على هذا الشعور بشكل نهائي. فعادت القومية العرقية من جديد في القرنين 15 م و 16م فالقوميات الإمبراطورية التي تشققت عبر التاريخ استطاعت من خلالها القومية المبتلعة داخلها تحقيق اسقلالها لأن القوميات الإمبراطورية كانت تتميز باستغلال القوميات القوية لغيرها من القوميات الضعيفة ، جاءت بعدها القوميات الدينية التي تصدعت هي الأخرى بسبب الفساد الذي رافقها فسارت على نفس خطى الإمبراطوريات القومية بثوب ديني سرعان ما لبث أن سقط.

وقد تأخر ظهور مبدأ القوميات بأوربا إلى أواخر القرن 18 م لأسباب متعددة وهو الدور الذي لعبته الكنيسة والإمبراطوريات القومية في العصور الوسطى حتى أواخر القرن الثامن عشر فكانت اليونان أول مولود لهذه الحركة باعتبارها أول دولة قومية.

3) <u>أبعاد القومية و تأثيرها على أوروبا:</u>

- **<u>على المستوى السياسي:</u>**

بعد الإنتشار الواسع للأفكار الثورة الفرنسية ، وما تركته من آثار عميقة في نفوس الأوربية وارتباط القومية بمجموعة من المفاهيم والأفكار كمفهوم سيادة وحق تقرير المصيروالديمقراطية فشعرت الدول الرجعية بأنها مهددة في وجودها بعد تنامي تطلعات الشعوب لتحقيق إستقلالها القومي وتبنيها لمبدأ حق الشعوب في تقرير المصير ، فوجد الساسة الأوربين في مؤتمر فيينا 1815م، فرصة حقيقة لترتيب الأوضاع وتحقيق توازن دولي فعملت الدول المنتصرة على تحقيق مصالحها واستقرارها السياسي حتى

ولو كان على حساب شعوب أخرى فعمل المؤتمر على محاربة الأفكار ليبرالية ومواجهة الحركات القومية، فأوصت قرارات المؤتمر بضرورة إرجاع الملوك إلى عروشهم وتقويتهم، وما كان في ذلك من تعارض مع مطالب الشعوب وعملت على تحقيق توازن إقليمي لم يراعي الخصوصيات القومية لشعوب أوربا فتم عقد عدة تحالفات لمواجهم أي قوة يمكن أن تغير الوضع الجديد الذي أصبحت عليه أوربا بعد مؤتمر فينا ومن بين هذه التحالفات الحلف المقدس ، الذي جمع بين بروسيا وروسيا والنمسا في26شتنبر 1815م، والحلف الرباعي في 20نونبر 1815م، الذي ضم إنجلترا لباقي الدول المذكورة فشتد الصراع بين الدول كل يرغب في الوصول إلى طموحاته وتوسيع ممتلكاته على حساب قوميات ناضلت من أجل الحرية فقيصر الروسيا كان يطمح في السيطرة على بولندا ، على حين كان ملك بروسيا يطمع في بسط نفوده على سكسونيا واتفق كلاهما على ذلك ، وعارضت النمسا بلسان ممثلها ميترنيخ وشاركتهما إنجلترا بلسان ممثلها كاسلرن وانظم إليهما تاليران وانقسم ا لمؤتمر إلى معسكرين، قد يؤدي اشتداد الخلافي بنهما على اشتعال نار الحرب سيما وأن المتحالفين الثلاثة (انجلترا،النمسا،وفرنسا) فلما اكتشف أمرها القيصر وحليفه الملك البروسي تنازلا عن بعض أطماعهما تفاديا لوقوع الحرب بين الطرفين فانتهى الأمر بمنح بروسيا حوالي نصف سكسونيا الروسي فرأى المؤتمر أن تكتفي بجزء كبير من بولندا متغاضيا في رأيه عن التمسك بمبدأ التوازن الدولي بغية تجنب الحرب بعد تلك الجهود التي بذلتها[14]

وأما مسألة بولندا إستطاع المؤتمر أن يضع تسوية بشأنها حصلت بوسيا على (بوزن) واحتفظت النمسا بإقليم(غاليسيا) وغدت جمهورية كاركاو وما حوله ا مستقلة، أما بقية بولندا فوقعت تحت نفوذ روسيا.

فكانت قرارات المؤتمر إجهاضا لتطلعات الشعوب ، فأصبحت محط أطماع وصراع بيد الدول وفي ضل القمع الذي تعرضت له الحركات القومية ، أصبح توجه نحو العمل السري ضرور ة وسبيل العناصر المثقفة الوطنية فظهرت جمعية الكاربوناري التي سعت إلى تحقيق الوحدة الإيطالية وطرد نمسا. ونجد أيضا جمعية السرية بألمانيا جمعية أهل الكشف . فعملت الدول الرجعية على كبح جماح كل هذه الحركات التحررية .

ونجد للأقليات القومية آثار بليغة في سياسة الدولية، حيث أضعفت السياسة الخارجية لبعض البلدان النمسا وهونغاريا، فقد وجدت الدولة النمساوية الهنغارية مشقة وصعوبة في قراراتها الخارجية حيث لم تكن تحضى برضى جميع شعوب النمسا وهونغاريا باختلاف تطلعات والعاطفة القومية لكل بلد.

وقد أثرت القومية على سياسة روسيا الخارجية فكانت متوجسة من بولونيا ومدى ولائها لروسيا في فترات الأزمات وكانت بريطانيا هي الاخرى متوجسة من الوضعية الإرلندية.

وإذا تأملنا في أوراق اللورد سالزيوري المنشورة ن رى الدليل على هذا القلق (إن المصائب الكبرى التي نواجهها الآن في إيرلندا لا تمكننا، من أن نسمح لأنفسنا القيام بسياسة خارجية جريئة على القارة).[15]

---

[14]) زينب عصمت راشد، تاريخ أوربا الحديث في القرن 19، دار الفكر العربي ،القاهرة ،ص:230.
[15]) نور الدين حاطوم اليقضة القومية ج3 ص12

وفي كل الحالات السابقة، قد انبنى مطلب هذه الدول في الاستقلال على أساس أن كلاً منها كانت تتمتع بكيان قومي ذاتي يعطيها الحق في تقرير مصيرها وفق ما تراه مناسبا ومتمشيا مع ظروفها وأوضاعها الخاصة.

وقد أدى ذلك إلى تفجير عدد كبير جدا من الصراعات الدولية، ويرجع ذلك إلى سعي الدول إلى توسيع حدودها لكي تضم بداخلها الشعوب التي تشاركها قوميتها، فالحدود السياسية للدول لا تتفق في كل الأحوال مع التقسيمات القومية للشعوب، وهو ما يمثل الفارق بين مفهوم الدولة ومفهوم الأمة، فالدولة هي كيان سياسي يتحدد في إطار جغرافي أو إقليمي معين، أما الأمة فهي دلالة على كيان قومي معين خارج عن الإطار الجغرافي أو الإقليمي الذي يعتبر أحد المقومات الرئيسية للدولة[16].

وهناك الكثيرمن الأمثلة على هذه الصراعات الحدودية القومية التي تعتبر سمة من سمات العلاقات الدولية، فهناك النزاع الدائم بين ألمانيا وفرنسا على إقليم الالزاس واللورين وحوض السار النزاع بين إيطاليا ويوغ وسلافيا على إقليم تريستا، النزاع بين بولندا وتشيكوسلوفاكيا على إقليم تسكين والنزاع بين بلغاريا ويوغوسلافيا واليونان على إقليم مقدونيا، والنزاع بين الولايات المتحدة والمكسيك حول إقليم تكساس، وهو النزاع الذي تسبب في الحرب الأمريكية المكسيكية عام 1846م، وهناك أيضا النزاع بين الصين والهند حول إقليم الهمالايا الذي أدى إلى اندلاع الحرب بين الدولتين عام 1962م والنزاع بين الهند والباكستان حول إقليم كشمير ،وهذه المشاكل حول الحدود تؤدي إلى إذكاء الروح القومية ، وزيادة حدة الصراعات الدولية[17]

وفي ظل التأثير القوي الذي حققته الثورة الفرنسية على باقي شعوب، فكان مفهوم الإستفتاء الذي جائت به الثورة أثربليغ في تبنيه من طرف الشعوب القومية الذي رأت فيه مخلصا ومحققا لتطلعاتها القومية.

وقد اعتمدت الدول الأوربية القومية لأه داف سياسية بهدف إضعاف الإمبراطورية العثمانية فوضعت مخططا القومية اليونانية وقوميات آسيا الصغرى ، فخرجت القومية الأوربية بمجموعة من الإيجابيات والسلبيات.

لعبت القومية دور أساسي في تقوية دور الدولة بحيث شكلت ركيزة أساسية في خلق الشعور بالتضامن الاجتماعي، وما يقدمه من دفعة نوعية للدولة في تعزيز سياساتها الداخلية والخارجية ، فكانت القومية قوة إيجابية لدعم كيان الدولة.

كما كان للقومية دور إيجابي في سعي الدول نحو تخليص نفسها من التحكم الأجنبي ، وما يخلق هذا التحكم من شعور بالضعف والمهانة، فكانت للقومية أثر بليغ في تحقيق الدول لستقلالها . كما إن للقومية إيجابيات فإن لها سلبيات.

فهي تمثل تهديدا للسلم الدولي باعتبارها عاملا من عوامل إثارة الحروب، كما أن القومية يمكن أن تشجع النزاعات العنصرية، وما يمكن أن يخلق من توترات ، وانقسام داخل الوكن الواحد وهنا نذكر الأقليات القومية.

[16]) إسماعيل صبري مقلد ، العلاقات السياسية الدولية (الكويت ، مطبوعات جامعة الكويت ، 1971) ص79.
[17]) نفس المرجع.

وما كان لها من تأثير في تقيد سياسات الدول الخارجية، وتبني الشعوب القومية لمبدأ حق تقرير المصير وما شكل من تهديد للدول إضف إلى سياسات التي اعتمدتها دول تحت مسمى أمنها القومي من استغلال للشعوب النامية ودخولها في منافسة استعمارية انتهت بحربين كونيتن كانت البشرية أكثر المتضررين منها.

كما كان للقومية إيجابيات من خلال دورها في أوربا بعد ت حقيق مجموعة من الدول استقلالها فقد أصبحت نقمة عند شعوب النامية، التي دخلت فيما بعد ضمن مخططات الدول الأوربية استعمارية فعانت شعوب إفريقية وآسيا من الاستغلال المادي والبشري إلا أن الشعوب النامية استفادة من القومية في تحقيق استقلالها، وبذلك كانت للقومية إيجابيات وسلبيات أثرت في السياسة الدولية.

- **<u>على المستوى الجغرافي:</u>**

إن الجغرافيا بوصفها مسرح الأحداث التاريخية، و نصرا من بين العناصر الثلاثة المساهمة بشكل كبير في صنع التاريخ و المتمثلة في الإنسان و الزمن وكذا المكان الذي يجسد أرضية لمسرح الأحدث و تطورها، وبالتالي فالتفاعل بين هذه المكونات الأساسية السالف ذكرها يساهم بشكل كبير في صنع التاريخ من جهة، و الوقوف عندها عند الدراسة التاريخية يأتي ثمارا راقية من جهة أخرى.

وقد أشار مانشيني الإيطالي في إطار تعريفه للقومية بكونها: "عبارة عن مجتمع من البشر يرتبط ببعضه البعض بوحدة الأرض و الأصول... "[18]، و الأرض هنا هي تجسيد و امتداد للمجال الجعرافي. فالأرض إذا من المقومات الأساسية التي تتأسس عليها الأمةو الشعور بالإنتماء رقعة جغرافية، ماهو إلى شعور قومي محض.

و الجغرافية عامل مؤثر في حياة الإنسان و تطورها، وذالك بدءا منذ ظهوره حتى الوقت الحالى فقد أدت الجغرافيا، دورا مهما في تحديد الموطن الأصلي للإنسان، وطرق عيشه وانتشاره في أرجاء العالم.

و الملاحظ أن البيئة الجغرافية، تؤثر بشكل أو بأخر في التطور السلالي و ذالك عن طريقالعزلة التي تنشأ عن وجود الحواجز الجعرافية الطبيعية كالسلاسل الجبلية و الصحراء و المحيطات، و تطور هذه الحواجز الجغرافية في العصر الحديث و المعاصر إلى حواجز سياسية، أو قبلها بكثير في عهد الرومان بما كان يعرف بالليمس الذي يفصل بلاد الرومان و مستعمراتها عن البلدن الغير الخاضعة لها يومئذ.

و بهذا الصدد فقد أشار الدكتور جورج حنا للقومية، بكونه عقد اجتاعي في الشعب له لغة واحدةمشتركة وجغرافية مشتركة و تاريخ مشترك... "[19].

وهذا في الحقيقة تأكيد لما سبق، فالجغرافية المشتركة بين أبناء شعب ما، تكون دائما سببا في وحدتهم القومية كما سنرى في فرنسا و الوحدتين الألمانية و الإيطالية فيما يتأتي من البحث.

[18]) بويد شيفر، ترجمة عدنان الحميري، القومية: عرض تحليلي، بيروث، ص:70، 1966.

[19]) جورج حنا، معنى القومية، ص:21، بيروث.

فعلى سبيل المثال، سكان شمال افريقيا الأولون، اعتبرهم الروماني ساليستيوس في كتابه حرب يوغورطة على أنهم على حد قوله في كتابه :" ...و أما عن سكان شمال افريقيا الأصليون و الذين وفدوا عليهم فإنني مع علم هذا بأن الرأي مخالف لما يروى." ،وقد استند سالستيوس كما هو ملاحظ لتعريف سكان شمال افريقيا إلى الموقع الجعرافي الذي قام بتحديده أولا وتحديد حدوده، وبعد ذالك قام بتحذيت الأصول البشرية بهذا المجال الجغرافي مما يأكد لنا أهمية التفسير الجغرافي في تحليل و شرح وفهم الظواهر الطبيعية و البشرية التاريخية في الآن نفسه.

وقد نشأت عدة سلالات ثانوية أو فرعية نتيجة تفرق لمجموعات بشرية وانعزالها عن بعض بسبب العوائق الجغرافية، وقد كانت الحواجز الجغرافية أهم العوامل التى تمنع الاختلاط وتشجع الاختلافات العشوائية، فمثلاً فصلت الصحراء الكبرى فى أفريقيا بين سكان البحر المتوسط (القوقاز) والمجموعة الزنجية فى أفريقيا المدارية، كما أن جبال الهمالايا فصلت بين مغول الهضاب العليا بوسط آسيا وسكان الهنود القوقازيين.

و بهذا فالحواجز الجغرافية كانت عاملاً قوياً ومؤثراً وقف أمام تحركات البشرالقومية وإن كانت مقدرة الإنسان على الملاءمة والتكيف مكنته من أن يعيش فى ظروف جغرافية وبيئات متباينة ومتنوعة.

ونخلص في ختام هذا الشق الخاص بالبعد المجالي الجعرافي للقومية، على أن الجغرافية ضرورية لتحقيق الرابطة بين أبناء الأمة الواحدة في الوطن الواحد.

- **<u>على المستوى الفكري و الثقافي:</u>**

في ظل ثورات وما رافقتها من مشاعر قومية أثرت على سياسا وجغرافيا على أوربا فلم يكن المجال الفكري بمنأى عن هذا التغيير الجارف العميق، فتراجعت الرومنطقية.

فعرف الآداب إنطلاقة واقعية على يد فلوبير وأجين سروايس ودستويفسكي وديكتز، وقد تأثرت بكل من موسيقى الأوبريت عند أوفينباخ ولوحات مانيه وموربيه ، بهذا التغييروأدخلت المشاعر القومية بعد عام 1870م، الكثير من التنوع فنم ى المذهب الطبيعي على يد أميل زولا و فرانس وبوردو وبايس وليون ولم يكن بروست وحيد بعد أن طبع الأداب الفرنسية بعمق وشهدت رمزية ساعات مجدها على يد فرلين وريمو قبل أن يدخل كل من بيغي وغليوم أبولينير نفحة أكثر روحانية وغنائية إ لى الشعر في أوائل القرن العشرين.

وعرف فن الرسم في فرنسا تألقا حقيقيا ، فأعطى الرسامون الفرنسيون دفعات جديدة للمدرسة الانطباعية فلم يكتف غوغين بالون بل أظهر تأثير الرمزية عليه وأراد سيزار ان يوفق بين اللون والشكل. وفي بداية القرن فصلت المدرسة التوحشية بين أعمالها وبين الشيء.

وظهر هذا الاتجاه *مانيس*ودوفي*و*ديران* ووجدت التكعيبية ، أوائل روادها مع بيكاسو وبراك وتعرضت الموسيقى كذلك لتأثيرات مختلفة فتأثر *غبريال فور*وكلود دوبوسي* بالإنطباعية والرمزية.[20]

[20] فرانسوا جورج ديفوس، رولان ماركس، ريمون بوادوفان، موسوعة تاريخ أوربا العام، أوروبا، من عام 1789 حتى أيامنا، ج3، منشورات عويدات باريس –بيروت ط1، 1995، ص169.

ولم تسلم ألمانيا من هذا التغيير فقد عرفت طفرة نوعية بعد عام 1870م، فنمى الآداب الطبيعية مع *هويمان* والآداب التعبيرمع *توماس* وعرفت الهندسة تطورا اكتسى طابع الفخامة ولم تكن روسيا بعيدة عن هذا التغيير فقد انتصر الآداب الواقعي قي حين ضلت إيطاليا مركز الغناء الجميل مع *فيدري* وبوتشيني*

وقد لعب المفكرون دورا مهما في تطوير مفهوم القو قي، فقد أحيوا الذكريات التاريخية وفهموا أهمية وحدة اللغة وعرفوا كيف يعبرون عن العواطف الغارقة في سباتها العميق ، ويبعثون فيها القوة والحياة.

وفي كل هذه الحركات تتردد أسماء الفلاسفة ورجال الآداب ومؤرخو اللغة والآداب والحقوق أكثر من أسماء رجال المذاهب السياسية ، وكان نشر هذه الأفكار يتم في الأوساط الثقافية والفكرية عن طريق التعليم الثانوي والجا معي والآثار الأدبية والتاريخية ، أما في الأوساط الشعبية فكانت تنتشر عن طريق الصحافة اليومية والدورات والدعاية ووسائل الإعلام[21]

ففي إيطاليا نجدها في آثار المؤرخين مافيشي وموراتوري 1672-1750م، وفي جنوب شرقي أوروبالف الأب بيزي عام1782 تاريخ الشعب السلافي البلغاري والقياصرة والقديسين في بلغاريا.

وفي حملة روسيا ضد تركيا عام 1770م، قامت حركة يونانية هزت شبه الجزيرة والجزر، وفي بلاد الشمال نشرت في العام 1760م، أول ميثولوجيا اسكاندينافية باللغة الألمانية. وفي العام 1772م ألف جيرارد شونينغ أول تاريخ للنورفيج.

وفي بضعة أشهر ألف أول نشيد وطني نورفينجي ، وترى في ه ذه الجملة (لاشك في أننا سنستيقظ مرة ونحطم أغلالنا وروابطنا ونقضي على كل قسر) ، وفي عام 1771م، ألف نشيد مماثل في فلندا. وفي ألمانيا ألف غوتيه عام 1773م، قطعته المسماة (غوتز فون برليشنغن)، وهي أول قطعة ذات موضوع ألماني قومي. وفي البلاد المنخفضة بدأ ببعث اسم بلجيكا[22]

فقد كان للنشيد القومي أثر بليغ في تعزيز الشعور بالانتماء للوطن وأصبح جزءا من ثقافة الشعور و مدعاة للافتخار والاعتزاز.

وقد قامت الدول باعتماد الأناشيد القومية حيث يتم غنائها وعزفها في المناصب الرسمية والأعياد الوطنية، ومن أشهر هذه الأناشيد القومية نشيد ألمانيا الغربية ، فكان مساعدا ودافعا للجنود في المعارك ومحفزا أساسيا للشعور القومي وقد قام كلود جوزف روجيه دوليسل بكتابة وتلحين النشيد الرسمي لفرنسا في تموز 1795م.

وقد عزز هذا المشهد بظهور فرق عسكرية للموسيقى السيمفونية تقوم بالعزف في المناسبات الرمية وتعتبر فرنسا أول دولة أدخلت الفرق السيمفونية إلى قواتها وبلغ عددهم في الجيش الفرنسي في القرن 19 حوالي 2800 موسيقي .

---

[21]) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية،ج1،ص14.
[22]) عبد الرؤوف سنو، القومية الألمانية وتجلياتها الوحدوية والعنصرية والإمبريالية، ص5.

أما فيما يخص اللغة، فقد تأخر ظهور لغات القومية فكان لعدة أسباب فقد سيطرت اللغة لاتينية على عدة قطاعات فكانت هي لغة فهم الدين وتفسير واللغة والآداب والعلوم في أوربا إلى القرن 15 فكان دور اللغات القومية منحصرا في تواصل كلهجات عامية لا تستحق استعمالها من طرف المثقفين فكانت بذلك نكسة للغات القومية وعاملا في تأخر نموها.

أما الثقافة فلم تعرف انتشارا في الأوساط الشعبية بسبب احتكارها من طرف فئة معينة، رجال الدين والطبقة الأرستقراطية وباتت الدولة غير مسئولة عن التعليم فمان الشعب محروما من الثقافة ، مما أخر عجلة الظهور القومية.

وقد ظهرت مجموعة من الأفكار العنصرية التي مجدت قوميتا بعينها وجعلتها أسمى من كل الشعوب فقد اعتبر فيشته أن الألمان هم الوحيدون الذين يملكون القدرة على تجديد أنفسهم، لأن لغتهم هي الأنقى والأكثر أصالة. وبعبارات استهاض قومية حماسية شوفينية تدعو إلى حب الوطن وجعل الأمة الألمانية والشعب الألماني فوق غيرها.

من الأمم والشعوب، خاطب فيشته قومه بالقول " إذا أردتم أن تكونوا أناسا يستحقون هذا الإسم حقا (ألمان) فيجب أولا أن تكونوا مواطنين. وإذا أردتم ألا تهلك ألمانيا، فاجعلوها أولا أمة تحترم نفسها, وتحمل جميع الأمم على احترامها.

إن الألمان هم الشعب الحقيقي، والجنس الصحيح الطراوة الأصيل للإنسان، إذا قلت "ألماني" فكأنك قلت "الإنسانية"كلها.

إنهم (الألمان) أصح الأمم مزاجا، وأوفرهم نشاطا. أمة تمنح حياة جد يدة لما تقتبسه من الأمم الأخرى لأن الحياة فيها مستمدة مباشرة من الله الذي صورها وقومها أحسن تقويم. إننا الشعب المختارشعب المستقبل، إننا الوعي العالي للإنسانية.

وبالإضافة إلى ذلك، كان فيشته معاديا للسامية ولليهود بشكل خاص، معتبرا أنهم أقاموا دولة لهم داخل الدولة الألمانية، ما يقوض الأمة ويشكل عائقا أمام تكون القومية الألمانية ، فقال:**"**....أن نعطيهم (اليهود) حقوق المواطنة، فلا أرى سوى وسيلة واحدة وهي لأن نقطع رؤوسهم في إحدى الليالي ونضع محلها رؤوسا خالية من أية أفكار يهودية. ولنحمي أنفسنا منهم ، فإني لا أرى سوى أن نفتح لهم أرض الميعاد (فلسطين) ونرسلهم جميعا إلى هناك**"**.[23]

واعتبر المؤرخ هاينريش فون ترايتشكه "أن اليهود هم طالع شؤم للألمان، فطالب بضرورة استئصالهم.

وبتالي فقد كانت الدعوات التحريضية ضد الغريب لدى الألمان متجردة في الفكر والثقافة الاجتماعية والسياسية لدى الألمان ، ولم تنحصر في شخصية هتلر الذي تبن هذه الأفكار وعمل على تطبيقها من خلال الحرب إلى جانب الفاشية في إيطاليا . فكانت تلك أحد نتائج القومية على المستوى الفكري سواء بشقها الإيجابي أو سلبي.

---

[23]) المرجع نفسه، ص: 6.

المبحث الثاني :

الحركات القومية الأوربيةخلال العصر الحديث و المعاصر

لايمكن أن نحدد تاريخا معينا، كبداية لتاريخ أوروبا المعاصر لكن على وجه الإجمال – تشتمل دراسة تاريخ أوروبا المعاصر أحداث القرن التاسع عشر، و تمتد بعد ذالك إلى القرن العشرين فتعطي أحداث الحرب العالمية الأولى، و الفترة ما بين الحربين العالميتين ثم أحداث الحرب العالمية الثانية و ما تلتها من أحداث.

ولعل مؤتمر فيينا 1815م الذي افتتحت به أوروبا صفحة جديدة من تاريخها بعد الحرب البونابرتية، يعتبر في نظر البعض بداية طبيعية لتاريخ أوروبا المعاصر.

وقد تميزت هذه الحقبة من تاريخ أوروبا بمميزات نذكر منها : انتشار الشعور القومي ، و السعي للوحدة القومية وقد ترتب على ذالك ظهور دول قوية موحدة. وقد ظهرت الدول الحديثة على الأساس القومي أولا في غرب أوروبا و أدت عوامل سنتعرض لها لتأخر قيام الوحدة في إيطالية، وكذالك الوضع في ألمانيا، وكذا الدور الذي لعبته الثورة و القومية الفرنسيتين في التأثير على باقي دول أوروبا.

لكن لو تلبث أن اكتملت الوحدة الإيطالية و الإتحاد الألماني، و قيام الرايخ بظهور ألمانيا كدولة متحدة قوية ستلعب دورا هاما في تاريخ أوروبا المعاصر [24].

المحور الأول: الثورة القومية الفرنسية و تأثيرها على باقي دول أوروبا.

الثورة القومية لفرنسا 1789م:

شكلت الثورة الفرنسية نقطة تحول أساسية في التاريخ الفرنسي والأوربي وفي إقرار الديمقراطية وحقوق الإنسان. لذا نستطيع أن نعتبر الثورة الفرنسية وليدة فكر الأنوار ، وقد حملت هذه الثورة معاني الايخاء والعدالة والمساواة واصبحت لفترات طويلة نموذج ثوري للشعوب ضد الملكية الاستبدادية وأنظمة الحكم وحتى في تطور الفكر الشعبي والفردي.

[24]) شوقي عطا الله، عبد الرزاق ابراهيم، " تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة "، المكتب المصري ، القاهرة، ص 175.

الثورة الفرنسية تعتبر فترة تحولات سياسية واجتماعية كبرى في التاريخ السياسي والثقافي لفرنسا وأوروبا بوجه عام. ابتدأت الثورة عام 1789 وانتهت تقريباً عام 1799. عملت حكومات الثورة الفرنسية على إلغاء الملكية المطلقة، والامتيازات الإقطاعية للطبقة الارستقراطية، والنفوذ الديني الكاثوليكي.

وأدت الثورة إلى خلق تغييرات جذرية لصالح "التنوير" عبر إرساء الديمقراطية وحقوق الشعب والمواطنة، وبرزت فيها نظرية العقد الإجتماعي لـ جان جاك روسو، الذي يعتبر منظر الثورة الفرنسية.

وفي السنوات الـخمسة و السبعون التالية للثورة، حدثت في الحكومة الفرنسية عدة تقلبات بين الجمهورية والدكتاتورية والدستورية والإمبراطورية، إلا أن الثورة بحد ذاتها شكلت حدثاً مهماً في تاريخ أوروبا، وتركت نتائج واسعة النطاق من حيث التغير والتأثير في الدول والشعوب الأوروبية.

وقد أنهت الثورة الفرنسية 1789 حكم الملك لويس السادس عشر وحولت الحكم إلى نظام جمهوري، ورفعت شعارات الحرية والإخاء والمساواة، كما استندت إلى دستور ينص على حقوق الأفراد وواجباتهم، وأعلنت قيام دولة المؤسسات ممثلة في الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، مؤكدة على حق الأفراد في التنظيم وحريتهم في الاعتقاد.[25]

- **أسباب قيام الثورة الفرنسية**

لا شك أن السبب الرئيسي لقيام الثورة الفرنسية كان تسلط الكنيسة وتدخلها في حياة الناس، بل ومحاربتها للعلوم التجريبية وربطها لها بالشعوذة، ولا أدل عل ذلك من محاكمة العالم الفلكي الكبير في ذلك الوقت جاليليو جاليلي من قبل الكنيسة التي وصفته بالسحر والهرطقة لمعتقداته التي تعارضها الكنيسة مثل :

1) كروية الأرض و دورانها حول الشمس.
2) عدم كون الأرض مركز الكون.

ولعل من جملة الأسباب المباشرة للثورة القومية الفرنسية، توالت بفرنسا مند 1786 مواسم فلاحية رديئة أثرت بشكل مباشر على الإنتاج الفلاحي فانتشرت المجاعة واشتد الشقاء على الفلاحين لدرجة تحول عدد من سكان البوادي لقطاع طرق. ورغم الأزمة فلم يتأخر النبلاء في المطالبة بالواجبات الفيودالية مما سبب حنق الجماهير على أصحاب الامتيازات.

وقد أثرت الأزمة الفلاحية على باقي القطاعات من صناعة و تجارة و ضرائب فأمام شح إيرادات الخزينة الملكية اضطر الوزراء لفرض ضرائب جديدة على النبلاء. إلا أنها أثارت غصب هذه الفئة فقرروا العصيان والمطالبة بعقد المجالس العامة للأمة. ففي صيف 1788 أصبح النظام الملكي الفرنسي مهدداً من قبل جميع الهيئات التي اتفقت على المطالبة بعقد المجالس العامة لدراسة الوضع مع

---

[25]) الثورة الفرنسية- نظرة تحليلية، هاني جودة.

الحكومة قصد اتخاذ التدابير لمعالجة الوضع. واضطر الملك لقبول الاقتراح وتم عقد المجالس يوم أول مايو 1789 . ومن هذا المنضور يمكننا تقسيم أسباب الثورة الفرنسية إلى:

1. الإطار الفكري و الأسباب السياسية:

عرف القرن 18م بفرنسا قيام حركة فكرية تميزت بنبذ اللامساواة، ونشرت أفكار جديدة تنتقد النظام القديم وامتيازات النبلاء وتعصب رجال الدين، ولذا سميت هذه الفترة بعصر الأنوار .
من أهم زعماء هذا التيار الفكري، مونتسكيو الذي طالب بفصل السلط، فولتير الذي انتقد التفاوت الطبقي في حين ركز روسو على الحرية والمساواة.

وللإشارة فقد تميز نظام الحكم في فرنسا قبل الثورة باستحواذ الملك والنبلاء والإكليروس (رجال الدين) على الحكم في إطار ملكية مطلقة تستند إلى التفويض الإلهي مع عدم وجود دستور يحدد اختصاصات السلط .

2. الأسباب الإقتصادية و الإجتماعية:

أما فيما يخص الأسباب الإقتصادية، اعتمدت فرنسا على النشاط الفلاحي، حيث استحوذ رجال الدين والنبلاء على أخصب الأراضي وفرضوا على الفلاحين الصغار كل أشكال السخرة والضرائب رغم توالي مواسم فلاحية رديئة منذ سنة 1786، كما عانت الصناعة الناشئة من منافسة البضائع الإنجليزية.

أما اجتماعيا، تشكل المجتمع الفرنسي من ثلاث هيئات متفاوتة، أهمها رجال الدين والنبلاء المتميزة بالحقوق الفيودالية، أما الهيئة الثالثة التي تمثل 96 %من السكان فتشكلت من الفلاحين الصغار والفئات الشعبية والبورجوازية التي كانت غنية وطموحة لكنها محرومة من المشاركة السياسية.

و يمكن اختزال مراحل و أحداث الثورة الفرنسية القومية في الرزنامة التالية التي نستعرض فيها جل أحداث هذه التورة و هي كالآتي :

- دجنبرعام1788م: عقد مجلس الهيئات العامة والإعلام عن تأسيس الجمعية الوطنية.
- 17يونيوعام1789م: الإعلان عن الجمعية العمومية من طرف الهيئة الثالثة.
- 14يوليوزعام 1789م: مهاجمة الثوار سجن الباستيل.
- 11غشت عام 1789م: اجتماع الجمعية العمومية و إلغاء الحقوق الفيدرالية.
- 26غشت عام 1789م: إعلان حقوق الإنسان و المواطن.
- 3غشت عام 1791م: وضع الدستور.
- 10غشت عام 1792م: إلقاء القبض على الملك (إعدام الملك في 21 يناير 1793م).
- 24يونيوعام 1793م: إصدار دستور جديد والاقرار بعودة السلطة إلى الشعب، تأسيس حكومة طورية بقيادة روبسبير و إنشاء لجان خاصة.
- 17شتنبرعام 1793م: إصدار(قانون المشتبه بهم) وإعدام العديد من الجيرونديين. وقيام العناصر البورجوازية باغتيال روبسبير.

- 1795م: إصدار دستور جديد وتأسيس حكومة جديدة وتكوين مجلسين، مجلس الحكماء ومجلس خمسمئة، استمرار الثوار (بابوف) وثورات الملكيين.
- 19شتنبرعام 1799م :لجوءالبورجوزاية إلى الجيش (نابوليون بونابرت) لتسلم الحكم[26]

- **نتائج الثورة الفرنسية:**

ويمكننا اختزال هذه النتائج في المستويات الثلاث التالية:

أولا: النتائج السياسية :

1. وضع حد للاستبدادو الرجعية و إلغاء الفيدرالية.
2. إعلان حقوق الإنسان و وضع الدستوربالإضافة إلى فصل السلط.
3. تحقيق الحرية و المساواة في الضرائب، و بالتالى تحقيق العدالة بين الفرنسيين.
4. توحيد فرنساقومياعلى المستوى الإداري،الإقتصادي،السياسي و كذا على مستوى اللغة.
5. التأثير على أوروبا و أمريكا اللثينية.

هذا يعني بأنه ظهر لأول مرة النضام الجمهوري ،وتم الاقرار بحقوق الإنسان وفصل الدين عن الدولة وإلغاء الحقوق الفيدرالية ،و اعتبار السيادة للأمة، وتوحيد الشعب الفرنسي واعتبار الفرنسبة اللغة المتداولة. وكان للثورة الفرنسية صدى لدى الشعوب الأوربية وكذلك في أمريكا اللاتينية.

ثانيا: النتائج الإقتصادية:

استفادت البورجوازية من إلغاء النظام الفيدرالي في فرنسا وإلغاء الحواجز الجمركية وتشبثت بالحرية الاقتصادية أي الليبرالية.

توحيد المكاييل والأوزان والمقاييس (m,kg) إلغاء الضرائب الفيدرالية وخلق ضرائب جديدة على الثورة وقد أضحت أصبحت الميزانية تقترح من طرف الحكومة ويصادق عليها البرلمان.

ثالثا: النتائج الإجتماعية:

عرف الميدان الاجتماعي تحولاً كبيراً حيث أصبحت البورجوازية هي مركز الثقل الاقتصادي سيطرت على أغلب الأراضي وحصلت على أرباح كبيرة نتيجة للحرية الاقتصادية وإلغاء الحواجز.

لم يستفد القرويون والفلاحون كثيراً بل تحولوا مع الوقت إلى عمال زراعيين ونفس الشيء بالنسبة لسكان المدن الذين تحولوا إلى عمال صناعيين بدون حقوق.

---

[26]) تاريخ أوروبا في العصر الحديث:من ظهور البرجوازية إلى الحرب الباردة،عبد العظيم رمضان.

أما في ميدان التعليم تبنت الثورة إلزامية التعليم ومجانيته وعلمانيته ، وفي في التعليم العالي أعيد تنظيم أعلى المؤسسات العلمية الكبرى كالمدرسة المتعددة الفنون ومدرسة القناطر والطرق . انفصلت الكنيسة عن الدولة وأصبحت مراسيم الزواج تتم في الجماعات وأصبح الطلاق مباحاً والقضاء مجاني وهو من مهام الدولة.[27]

تأثير الثورة الفرنسية على دول أووبا:

لقد أصبحت فرنسا مربية أوروبا، ومعلمة لها، ولاسيما أن أبدى العهد الرجعي اختلافا بين دور فرنسا في أوروبا و أصبح ضعيفا، لأن الدبلوماسية الفرنسية كانت ملزمة على الأقل بالإنطواء و أحيانا بالطاعة، و بين اشعاعها الفكري العظيم. ولقد كانت حركة الفكر الفرنسي في العهد الرجعي كثيفة في المضمار الأدبي و السياسي و الفني، و استقت حركة الإبداعية إلهامها من أوروبا حتى أن نوعا من النفوذ و التداخل، قد تم بين الأدب الألماني و الإنجليزي و الأدب الفرنسي، و تهيأ في فرنسا، بالمقابل نظام جديد للأفكار جد أوسع في أوروبا، و أعطت فرنسا لأوروبا درسا سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا. ظهر بشكل حركة فكرية عامة، ولم يكن بصورة نوعية.

و قبل الحديث عن التأثير الذي جسدته فرنسا في باقي دول أوروبا، لابد من الحديث عن مذهب الثورة وسياستها و هو الذي زعمت فيه الثورة على أنها تنيب العقل و الحق مقام القوة. و هذا هو العنصر الفكري الجديد الذي أتت به. وفي الحقيقة يبدو أن لثورة عام 1789م، صفة عالمية شاملة، لأن نظريتها تطبق على جميع الناس لا على الفرنسيين وحدهم، و قد كتب الكاتب الفرنسي في هذا السياق عام 1973م: (إن الثورة عالمية و ليست خاصة بالفرنسيين.) .

فماهي إذن الافكار التي الفرنسية التي قلبت قواعد الحق العام الأوروبي و أعطت لثورة فرنسا صفة العالمية؟

لقد جعلت الثورة من مذهب روسو، الذي يتجلى في العقد الإجتماعي و فصل السلطات و إقرار حقوق الإنسان و الحرية ، برنامجا سياسيا، لأنها لم تقتصر على المناداة بحقوق الإنسان و القوميات بل شنتها حربا ضروسا في الدفاع عن الحرية وحق الشعوب، وقد تم دعم هذه الحركة بحركة دعائية ضخمة . ولقد كان الكثيرمن الكتاب و الناشرون في عهد الثورة يطالبون منذ 1791م، بتدخل فرنسا لصالح شعوب أوروبا. وقد تم تأسيس حزب سياسي جعل الفرنسيون من أسسه الكفاح في سبيل الحرية و الدعاية للأفكار الفرنسية في باقي دول أوروبا.

و تجدر الإشارة إلى أن "بريسو" قد أرسل بآسم اللجنة الدبلوماسية الفرنسية تعاليمه إلى ممثلي فرنسا في الخارج في سنة 1791م، ومما ورد في مراسلته هذه التي يقول فيها : (قولوا إلى الدول الأجنبية إننا نأخذ على أنفسنا عهدا دينيا بأننا لانبغي أي فتح، و إننا نحترم قوانينها و دساتيرها، و إن كل ما نريد هو أن يكون قانوننا محترما. قولوا لها إن أمراء ألمانيا إذا استمروا في تشيط تعبئتهمضد فرنسا فلن نحمل إليهم الحديد و اللهيب بل الحرية، وما عليهم إلا أن يقدروا كيف يمكن أن تكون عواقب يقضة الأمم.). [28]

---

[27]) محاضرات في تاريخ أوروبا بين النهضة و الثورة الفرنسية،عبد العزيز عبد الغاني ابراهيم.
[28]) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية بأوروبا، الجزء الثاني،ص: 102-103.

و هذا ما سنتطرق له في مسار الوحدتين الإيطالية و الألمانية اللواتي جعلتا من الحرية و حقوق الإنسان و المساواة محركا ليقضة أممها.

وعلى هذا فالثورة الفرنسية تدعو إذن للقيام و السعي في توطيد حريتها و تعدها بالمساعدة، وتوضح في الآن نفسه بأن سياستها هذه لا تؤدي إلى أي فتح أو استعمار، و أنها كذالك لا تتدخل في شؤون الغير،غير أن العكس هو الحاضر.

وللحديث عن تجليات و انعكاسات التأثير الفرنسي على دول أوروبا فيما يعرف بالحركات القومية و يقضة الأمم. وبهذا لابن من الحديث عن الأثر الذي خلفه الإمبراطور نابوليون في شبه الجزيرة الإيطالية المتجسد في اثبات إرادته في ايجاد أمة في إيطاليا، و للإشارة فإن سياسة بونابرت كانت سياسة قومية محضة، و يتضح ذاك عندما أتى "مالزي" وهو يومئذ رئيس الجمهورية القديم يقدم إلى نابوليون تاج إيطاليا عام 1805م،قال نابوليو ن: (كانت نيتي دوما أن أجد الامة الإيطاليةحرة مستقلة. إنني أقبل التاج و أحفظه في الزمن الذي تقتضيه مصالحي.).[29]

فإذا ايطاليا هي البلد الوحيد الذي أراد نابوليون أن يوحد فيه أمة و دائما في سياق تأثير الثورة الفرنسية على دول أوروبا، فقد هزت الثورة الفرنسية القومية اليونانية و هي لا تزال تجهل نفسها رغم ما كانت عليه من توافر العناصر لتعرف نفسها.

و في الحقيقة إن تدريب الأمة اليونانية على الشعور بنفسها أتى من الخارج. و أول جهد بذل لفهم الدولة الإغريقية، و تحقيق هذه الدولة كان من الخارج أيضا. ولذا تمتاز الحركة اليونانية بالجمع بين الدفع الخارجي و الزخم الداخلي. ولقد كانت الثورة الفرنسية فرصة لأول حركة قومية في اليونان.[30]

و بذالك فقد انتشرت الأفكار الثورية الفرنسية في اليونان بشكل يصعب تحديده و إمساكه، و ذالك لأن انتشار الأفكار كان بطريق الإخبار و العدوى و بالتالي هذا الإنتشار لا يترك أثرا في الوثائق، ومع ذالك فإننا نستطيع معرفة نفوذ و تغلغل الأفكار الفرنسية و هي مارة عبر فيينا.

و إذا كانت الثورة الفرنسية، فرصة سانحة لليونان شعرت فيها بنفسها، وحاولت أن تحقق قوميتها فقد كان الحال على العكس فيما يتعلق بتأثيرها في ايرلندا. لأن الثورة الفرنسية حمست الإيرلنديين و قسمتهم على أنفسهم بنتيجة الأخطاء التي جعلتهم يرتكبونها.

فمن خلال ما سبق الإشارة إليه يتبين لنا أن أفكار الثورة الفرنسية، و مبادئها المتجسدة في الحرية و الكرامة و العدالة، بالإضافة إلى المساواة، وحقوق الإنسان نهيك عن حق الشعب في تقرير المصير القومي. وقد أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في دول العالم عامة و دول أوروبا على الخصوص، وذالك ما قمنا بتوضيحه بنماذج مختصرة للغاية و المتمثلة في دور فرنسا في الوحدة الإيطالية و كذا التأثير الفكري لفرنسا على اليونان ، بالإضافة إلى الدور الذي سعيت من خلاله فرنسا إلى تقسيم الإيرلنديين، وذالك لخدمة مصالحهاالخاصة ، وسنحاول بشكل مفصل و قيق توضيح مسلسل الوحدتين الألمانية و الإيطالية وكذا دور التأثير الفكري لفرنسا في تحقيقهما.

[29]) مرجع سابق، الجزء الأول، ص:189.

[30]) نفس المرجع، ص:141.

المحور الثاني: القومية الألمانية ودورها في الوحدة:

لا يمكن في الواقع تحديد تاريخ دقيق لتكون القومية الألمانية ، ولا كذلك الحديث عن أمة ولا دولة وشعب يعيش ضمن حدود في ظل نضام سياسي جامع كما كان عليه الحال في بريطانيا وفرنسا . فالمناطق التي تتشكل منها اليوم الدولة الألمانية الاتحادية كانت في العصور الوسطى مسرحا لهجرات واسعة للشعوب والقبائل الجرمانية عقب سقوط دولة الرومانية عام 476م.

ولم تتوحد تحت سلطة سياسية واحدة إلا في عهد الإمبراطور كارل الكبير (شارلمان)، مؤسس مملكة الفرنجة مطلع القرن التاسع ميلادي ، وبعد وفاته انقسمت دولته إلى مملكة الفرنجة الغربية التي انبثقت عنها فرنسا لاحقا وتكلمت اللغة الفرنسية، ومملكة الفرنجة الشرقية التي سميت بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفيما بعد ذلك بمملكة الألمان وتكلم أهلها اللغة الألمانية فضمت الأخيرة كذلك أراضي النمسا وسويسرا وشمال إيطاليا وبوهيميا وهنغاريا التي تعتبر النواة الأولى لنشوء ألمانيا ككيان سياسي في سنوات ما بعد القرن العاشر ميلادي.[31]

وفي ظل الضغوط الخارجية تعرضت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى الانقسام إلا دويلات مستقلة عرفت تطورا سريعا، فكان لنشأة المذهب البروتستانتي أثر بليغ في ألمانيا.

فقد خرج عن المذهب الكاثوليكي ما يقارب 80% من سكان ألمانية إذ أدخلت هذه المعطيات المستجدة ألمانيا في دوامة من الحروب قطعت أوصالها وزعزعت استقرارها ، ولعل في طليعة هذه الحروب حرب الثلاثين عام، كانت ألمانيا أكثر المتضررين من هذه الحرب .

فقد اكتست هذه الحرب طابعا دينيا في بديتها فبعد الانتشار الذي حققه المذهب البروتستانتي، وخاصة في عصر القيصر فرديناند الذي حاول إجبار السكان على اتباع المذهب الكاثوليكي ، مما أجج الانتفاضة البوهيمية في براغ.

فكانت تلك شرارة الحرب التي امتدت ثلاثين ستة من 1618إلى 1648 اتسع نطاقها فشاركت فيها دول أوربية المتعددة من فرنسا، اسبانيا، دويلات المانيا، سويد، و مملكة الدنماركو النمسا.

فكانت خسائرها البشرية فادحة إذ تراجع سكان ألمانيا إلى النصف حسب المؤرخين ، وقد انتهت الحرب بصلح ويستفاليا لينتهي بذلك الصراع الديني بأوربا ، فكان من نتائج هذه المعركة سياسيا تقسيم المملكة الألمانية إلى قرابة 360 دويلة ودوقية أو قصر أو إمارة كنسية.

وفي ظل الصراع الحاد على ألمانيا بين بروسيا التي كانت تحكمها أسرة هنرولزن البروتستانتية وأسرة هايسبورغ النمساوية الكاثوليكية .

---

[31]) عبد الرءوف نشوء، القومية الألمانية وتجلياتها الوحدوية والعنصرية والإمبريالية، تيار المستقبل، بيروت،2009 ص3.



1) الثورة الفرنسية وآثارها على ألمانيا:

كان للمفكرين والمؤرخين وصحفيين وأساتذة الجامعة، أثر بليغ في تعزيز الشعور القومي والعمل على توحيد دويلات ألمانيا ، فكانت للثورة الفرنسية آثار عميقة . فقد تأثرت ألمانيا بالآراء والأفكار التي نادت بها الثورة الفرنسية فبرز مجموعة من المفكرين والفلاسفة من أمثال كانط فيخته ، فانتشرت قناعة بين المفكرين أن النظام الملكي الرجعي قد تجاوزه الزمان.

وقد كان رد فعل الحكومات الألمانية تجاه الثورة الفرنسية عدائيا منذرين بالأفكار التي باتت خطرة على سلطتها، حتى أن كل حركة إصلاحية حاولت الاستبداد المستنير أن يقوم بها فتوقفت فجأة ، ومنعت النمسا منذ 1790م، نشر الرسائل التي يمكن أن تحدث أقل هياج في الأفكار ووضعت الرقابة.

ونظمت الجاسوسية ، وحظرت الإقامة في بروسيا على كثير من المهاجرين الفرنسيين المشبوهين بأفكارهم الفلسفية ، وفي خريف 1893م، منعت جميع المنشورات الفرنسية وحظرت على الصحف التكلم بسياسة[32].

ولوحقت الجمعيات السرية في ألمانيا (فرقة أهل الكشف)، بافاريا وتم منع جميع الرابطات الطلابية في4 يونيو1793م، وخضعت الجامعات للرقابة فكانت نظرة الألمان إلى الثورة الفرنسية عالمية بشرية.

[32]) نور الدين حاطوم، النهضة القومية ، ج1،ص:132.

2) حملة نابليون وعلاقتها بالقومية الألمانية

كان من آثار حملة نابليون على ألمانيا زوال الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، ولم يلحظ أي ردة فعل للألمان جراء هذا المعطى الجديد، فكانت ردات الفعل قليلة رافقتها امتيازات سُلبت أو مطامع لم تتحقق قام بها بعض بارونات الإمبراطورية الجرمانية ولم يتجاوب معها الرأي العام الذي لزم الحياد ولا مبالاة فخرجت ألمانيا من حملة نابليون بعدة نتائج أهمها إحلال إتحاد الراين لدويلات الألمانية الغربية وسقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة سنة 1806م، أزيلت عدة دول كنسية وطبقة النبيلة ونتيجة هذا التمركز أصبح عدد دويلات ألمانيا ما يقارب 80 بعد أن كانت 360 دويلة، ومن النتائج أيضا إخراج النمسا من ألمانيا بعد إن جردها من ممتلكاتها مدن الحدود الريانية.

وبذلك فقدت النمسا نفوذها السياسي في ألمانيا كما أبعدت السويد عن ألمانيا التي كانت تمتلك فيها بومبراتا وعمل على تجزيء بروسيا حتى فقدت نصف أراضيها وسقطت عدد الدول من 80 دولة إلى 38 مما ساعد على تبلور شعور القومي للمرة الأولى فقد هيأت هذه التغيرات التي قام بها نابليون للوحدة الألمانية فلم يكن نابليون مؤسس للقوميات لكن بطريقة غير مباشرة تولدت القوميات ضده، لأنها تأسست على حقد وكره الغاصب الأجنبي المتمثل في نابليون فقامت حركة وطنية ضد فرنسا فكانت العاطفة القومية الألمانية تستند إلى كرهها للاحتلال الفرنسي.

فكانت حروب نابليون بمثابة اختبار حقيقي للعواطف القومية الألمانية بعدما أساءت الجيوش الفرنسية معاملة الحكومات والشعب الألماني ، فانتشرت المشاعر القومية التي طبعها الكراهية لفرنسا وثورتها والأفكار التي نادت بها ، فبرزت في حروب الاستقلال ضد نابليون فكان للمفكرين والحركات الطلابية فضلا كبيرا في بروز هذا الشعور.

ولعل أبرز هذه الحروب التي كانت لها نتائج حاسمة نذكر معركة لايبزج ، أو معركة الأمم التي جرت قرب مدينة لايبزج شرق ألمانيا سنة1813م، فكان الشعور القومي دافعا قويا في هذه المعركة كما شارك إلى جانب الألمان جيوش بروسيا النمسا وسويد ودول أخرى.

3) بروسيا والنمسا وعلاقتهما فالوحدة الألمانية:

لا يمكننا الحديث عن الوحدة الألمانية، دون الوقوف عن مواقف كل من نمسا وبروسيا، وما كان لهما من تأثيرات على الوحدة الألمانية سواء بالسلب أو الإيجاب ، فقد برز في ظل هذه الفترة شخصيتان بارزتان مترنيخ وبسمارك.

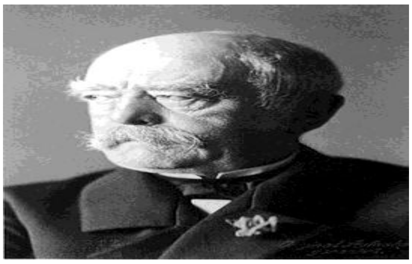
كان الأول عتبة في الوحدة الألمانية بل واجه كل الحركات التحررية القومية ، والثاني ذهب بخطى ثابتة وقوية إلى تأسيس الرايخ الثاني فدخل في مواجهة مع كل الأطراف التي كانت تقف حاجزا أمام وحدة ألمانيا.



✓ **مترنيخ (1773م - 1859م) :**

ولد سنة 1773م، بمدينة كوبلينز بوسط غرب ألمانيا ، عين وزيرا للخارجية للإمبراطورية النمساوية سنة 1809م، استطاع بفضل حنكته السياسية أن يعيد للنمسا مكانتها كقوة أوربية بعد أن تزعزعت إثر انهزامها ضد نابليون.

فستغل مؤتمر فيينا فأعاد ترتيب أوضاع أوربا ، وعرفت الفترة الممتدة من 1815م - 1848م،عهد *مترنيخ*فعمل على إقرار سلم بأوربا وترتيب أوضاع أوربا فقام بإرجاع الملكيات المطلقة إلى سابق عهده. ووقف في وجه الحركات القومية ، وخاصة الوحدة الألمانية حفاظا على مصالح الإمبراطورية نمساوية في ألمانيا. كما عارض الوحدة الإيطالية فرأى في وجود دويلات إيطالية مستقلة يحكمها ملوك تمت إعادتهم بعد مؤتمر فيينا ستمكن النمسا من السيطرة على إيطاليا ، فكان سياسيا رجعيا فلقب بدركي أوروبا.



✓ **بسمارك 1815م - 1898م:**

كان أحد السياسيين المخضرمين استطاعة بفضل حنكته السياسية وقوة إيمانه بأهدافه تكوين الإمبراطورية الألمانية تحت زعامة ملك بروسيا ، ولقد تمكن من بلوغ هدفه بعد المعارك الطاحنة التي خاضتها بروسيا، والتي انتهت لصالحه بفضل قدراته السياسية فطرد النمسا من ألمانيا وإيطاليا وأضعف مملكة الدنمارك وأسقط الإمبراطورية الفرنسية الثانية.

فكان متحكما في المشهد سياسي بأوربا فعرف برجل *الدم والحديد*فأيقن بأن الوصول إلى توحيد ألمانيا وتكوين إمبراطوريتها لن يتحقق بالمعاهدات والاتفاقيات ، بل بإخضاع الشعب الألماني ودخول في حروب مع كل من يقف عقبة أمام الإتحاد.

وقد أشاد بقدراته خصومه وقد شهد < جول فافر > وزير خارجية فرنسا على إثر سقوط الإمبراطورية الثانية بمقدرة بسمارك السياسية بقوله إنها مقدرة تفوق كل ما يمكن أن يتصوره العقل في عالم السياسة، ويقول المؤرخ البريطاني <جوش> في وصف مذكرات بسمارك إنها تفوق كل ما كتب في عالم السياسة وتاريخها، وهي من أجل ذلك جديرة باهتمام المؤرخين قبل غيرهم، بل يجب أن تكون ذخيرة أساتذة التاريخ وطلابه وملاذا لرجال السياسة وخدامها.[33]

[33]) زينب عصمت راشد ، تاريخ أوربا الحديث في القرن التاسع عشر ، دار الفكر العربي، القاهرة،ص366.

4) دور بروسيا في الوحدة الألمانية:

❖ الإتحاد الاقتصادي سبيل الوحدة السياسية :

يعتبر إنشاء الزولفرين (الإتحاد الجمركي) نقطة تحول خطيرة في تاريخ الوحدة الألمانية، فتأسس الإتحاد سنة 1834م، ولكن بروسيا كانت قد شرعت مند عام 1818م، في تكوينه بادئة بنفسها أولا ويرجع الفضل في التأسيس الزولفرين إلى ماش وزير مالية بروسيا حينذاك.....

فقد كانت بروسيا نفسها مقسمة إلى عدة مناطق جمركية، وكل منطقة جمركية لها ضرائبها الخاصة بها وفي عام 1818م، أصدر قانون *فون بولو* وزير تجارة بروسيا قانونا بإلغاء الحواجز الجمركية الداخلية.

وبذلك تم توحيد بروسيا داخليا بعد أن كانت مقسمة إلى 60 منطقة جمركية وأدرك المسؤولون في بروسيا أن الوحدة الاقتصادية هي الأساس المتين الذي يجب أن تقوم عليه الوحدة السياسية.

وبذلك سعوا إلى إدخال الولايات الألمانية الأخرى في الإتحاد الجمركي [34]، ولضمان نجاح الزولفرين واستيعاب باقي الولايات الألمانية، اضطرت بروسيا فأدخلت بعض التعديلات على الزولفرين فأوكل مجلس مكون من كل الولايات مهمة الإشراف الرسمي على شؤون الإتحاد.

فأصبحت الواردات توزع حسب البنية السكانية، وفي ظل هذه التنازلات وما حققه الزولفرين من تطور ونمو اقتصادي وتجاري الذي لحق بالولايات المنضوية تحت الإتحاد الجمركي فقررت بافاريا و سيكسونيا الانضمام إلى الإتحاد الجمركي سنة 1834م، فبذلك أسس الزولفرين ألمانيا الاقتصادية فأحست النمسا بخطورة الأمر وتحركت نحو تغيير المعطيات فأقامت إتحاد مع زولفرين لكن بروسيا تحركت وتداركت الموقف من خلال قيامها بمعاهدة تجارية لتخفيف الرسوم الجمركية مع فرنسا بشكل متبادل، فأضعف من خلالها الإتحاد الجمركي الذي أقمته النمسا حيث أصبح الفارق بين التعريفة الجمركية للإمبراطورية النمساوية وزولفراين كبير جدا فاضطرت النمسا إلى الانسحاب وطلبت من بافاريا وهونفر على تخلي عن الإتحاد الجمركي البروسي ، لكنها فشلت لما كانت تراه الولايات من امتيازات في هذا الإتحاد فأصبحت الظروف ممهدة إلى الوحدة السياسية مما جعل الصراع بين النمسا وبروسيا أمرا محتوما.

5) الصراعات بروسيا من أجل الوحدة الألمانية :

❖ الصراع مع الدنمرك والاتجاه نحو ضم شلزويج * هولشتين* :

كان من أهداف بروسيا لم شتات ألماني فكان ضم الهوشتين وشلزويج ، أول محطة حيث كانت هذه الدوقتين تحت حكم مملكة الدنمارك مند سنة 1460م، فقرر بسمراك جر النمسا في الصراع، فكانت دوقية الهوشتين ذات غالبية ألمانية في حين كان الشلزويج جزء منها ألماني والأخر دنمركي ، إستغلت بروسيا فرصة موت فريديرك السابع ملك الدنمرك في 15 نوفمبر 1863م، فتحالفت بروسيا والنمسا

[34]) عبد الفتاح أبو عليه إسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، رياض، 1993،ص:319.

لمنع ملك الدنمارك الجديد ضم دوقيتين إلى مملكته ، بالرغم من القدرات الدنمركية العسكري وأسطولها القوي .

لم تكن لتستطع التصدي للتحالف النمساوي البروسي ولم تستطع الدول الأوربية التدخل لردع هذا التحالف فالإنجليز لم تستطع التدخل نظرا لمشاكلها الداخلية ، أما روسيا فقد راعت موقف بروسيا الذي دعمها في قمع ثورة بولندا.

أما بالنسبة لفرنسا لم تكن لتتعارض مع قرار مبادئها الداعمة للحركات القومية إبان حكم نابليون الثالث فمضى الحليفان في خطا ثابتة وبذلك استعادة ألمانيا جزء من كيانها المبعثر.

❖ الصراع البروسي النمساوي:

كان للإنذار التي وجهته النمسا إلى بروسا بعدم سيطرة على الدايت الألماني أي المجلس الذي كان تجتمع في الدويلات والولايات الألمانية أثر عميق في نفوس البروسيين بعد هزيمة بروسيا أمام النمسا سنة 1850م.

بالقرب من فلريا فرضخت بروسيا للإندا ، وعرف بإذلال المتز ومنذ ذلك الفترة عملت بروسيا على استرجاع هيبتها ونفوذها بأوربا لتصبح دولة قوية فكان بسمارك هو الشخصية التي رشحت لهذه المهمة حيث وضع توحيد ألمانيا هدفا له فكان الدخول في الصراع مع النمسا أمرا محتوما مما جعل بسمارك يسرع في تجهيز الظروف الملائمة للحرب.

فكان يرى في الاستفراد بنمسا بعيدا عن أي تحالفات قد تحققها هذه الأخيرة سبيلا لتحقيق الانتصارفتوجه إلى فرنسا ليكسب حيادها ، فأطلع القائم بالأعمال الفرنسية في برلين بضرورة وقوف فرنسا إلى جانب بروسيا مقابل إعطاء فرنسا مجموعة من الامتيازات.

كما أن نابليون الثالث الذي كان داعما لفكرة القوميات التحريرية ،فلم يمانع من قيام بروسيا بضم دوقيتا شلزويج و هولشتين.فرأى في دخول الولايات الألمانية الشمالية في بروسيا سيجعل الولايات الجنوبية تنزح تحت لواء فرنسا.وأن وقوع الحرب بين النمسا ، قد تمكنه من توسيع أملاكه على حدود فرنسا الشرقية كان وسعها بضم ينس وسافوي في عام 1860م، وتوقع نابليون كذلك إذا ما وقعت هذه الحرب وانتصرت فيها بروسيا أن ترد البندقية إلى إيطاليا.

ولما طمأن نابليون إلى وعود بسمارك خطر له ان يستجيب لرغبته في لقاء بينهما وتم ذلك في بيارتزل في نهاية سبتمبرعام 1865م، وكان الغرض من هذا للقاء أن يؤكد لإمبراطور لبسمارك وعده في الحياد إذا قامت الحرب بين بروسيا والنمسا .....

ويواصل بسمارك مساعيه ويعلن في مجلس الوزراء البروسي بتاريخ 28 فبراير 1866م، أن الحرب بين بروسيا والنمسا واقعة لا محالة.[35]

[35]) زينب عصمت ،تاريخ أوربا الحديث في القرن 19، دار الفكر العربي، القاهرة، ص: 393.

كما استطاعت بروسيا في إقامة تحالف مع إيطاليا سنة 1866م، مقابل أن تحصل على البندقية وعمل بسمارك على تحييد روسيا ، فعندما وقعت الثورة البولندية ضد سيطرت الروس وكانت السيطرة بغيضة إلى كل النفوس.

وقف بسمارك إلى جانب الروس رغم ما كان ينطوي ذلك على مبادئ حق الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه، وهو المبدأ الذي نادى به بسمارك لصالح الألمان الذين كانوا يعانون من التسلط النمساوي عليهم ولكنه يضع مصالح الألمان العليا فوق كل اعتبار[36]

وقد تريث بسمارك في الدخول في صراع لأن مثل هذه الحملة لم تكن لتحقق توافقا جماهيريا فعمل على استدراج النمسا ، فبعد رفض النمسا المشاركة في المؤتمر الأوربي الذي كان يهدف إلى حل بعض المشاكل الأوربية منها مشكلة شلزويج و هولشتين.

فأصبح حظوظ بسمارك في خوض حرب مع النمسا ترتفع فشاءت الأقدار، أن تأخذ النمسا المبادرة في طلب الدايت الألمانية في حل مشكلة هولشتين و شلزويج ، فبادر بسمارك فأمر جيوش في شلزويج بتقدم لاقتحام هولشتين فاعتبرت النمسا ذلك اعتداء سافرا للصك الاتحادي ، وحاول بسمارك استمالت الديات فقدم مشروعا إصلاحيا فأقام مشروع تعاهدي ألماني وأنشئ برلمان عن طريق الاقتراع العام فأظهر النمسا كأنها ترغب في الحرب .

وبعد التصويت في 14 حزيران 1866م، انقسمت الدول الألمانية. فقد صوتت دول الوسط أيضا ودولة واحة هانوفرفي ألمانيا الشمالية لصالح النمسا وصوتت الدول الأخرى.

وكانت الدول صغيرة لصالح بروسيا وانقسمت ألمانيا إلى قسمين، ولم تنفجر الحرب بين ألمانيا وبروسيا بل أيضا بين بروسيا والدول الألمانية التي صوتت لنمسا، وهذا يعني حرب أهلية ألمانية.[37]

فلنساقت النمسا وراء الحرب التي لم تقدر القوة العسكرية التي صارت عليها بروسيا فاندلعت الحرب بشكل خاطف،واستطاع بسمارك بفضل دهائه السياسي إشعال الحرب على أكثر من جهة بهدف بعثرة وتقسيم الجيش النمساوي بخلق جبهة في الجنوب انتهت بهزيمة الإيطاليين في24 يونيو 1866م.

ولكن النصر كان من حليف بروسيا في معركة سادوفا في 3 يوليو عام 1866م، فكانت معركة خاطفة انتهت بعد ثلاث أسابيع من قيامها انسحبت فيه الجيوش النمساوية نحو فينا وتحركت الآلة الدبلوماسية النمساوية نحو فرنسا مستنجدة بها فلم ترغب فرنسا في إقحام جيوشها واضعة نصب أعينها الوعود التي قدمها بسمارك لنابليون الثالث مقابل حيادها فاكتفت بتدخل الدبلوماسي .

وفي 14 تموز اقترح نابليون الثالث على الدولتين المتحاربتين النمسا وبروسيا إلى أسس السلام وهي كما يلي :

أ- حل الكونفدراسيون الجرماني الذي وجد منذ 1815م.

[36]) عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، تاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى ، دار الفكر العربي ط1 ،19، ص:372.

[37]) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، يقة القوميات الأوربية، الوحدات القومية ،ج3، ص55

ب- في الأراضي الألمانية التي كانت تشكل الكونفدراسيون ، يجب في المستقبل كما قال نابليون الثالث تمييز ثلاثة أقسام.

- الأراضي الواقعة في شمال خط نهرالماين ، ويجب أن تؤلف الكونفدراسيون ألمانيا الشمالية تحت إدارة بروسيا.

- دول ألمانيا الجنوبية بافاريا فرتامبرغ، دوقية باد الكبرى وقسم من دوقية هس الكبرى، يجب أن تبقى مستقلة.

- الأراضي النمساوية، وهذا يعني أن النمسا، منذ الآن فصاعدا, أبعدت عن القضايا الجرمانية .

وأخيرا إقترح نابليون الثالث، في جملة اقتراحاته، ضم الدوقيتين، شلزفيغ وهولشتاين، إلى بروسيا[38]بعد إضافة النمسا لبعض التعديلات قبلت بشروط المعاهدة ولم يكن بسمارك يرغب في إذلال النمسا لأنه كان ينظر إليها كجزء من ألماني وأيضا لضمان حيادها في الصراع القادم مع فرنسا.

فتم صلح براغ سنة 1866م،أسس إلى كونفدراسيون ألمانيا الشمالية تحت إدارة بروسيا مستقلة عن النمسا فكان صلح 1866م، عقبة حالة دون قيام ألمانيا الكبرى بل حتى أمام ألمانيا الصغرى (أي ألمانيا التي تضم الشمال والجنوب باستثناء النمسا.).

فقد كانت شروط صلح براغ يقف عقبة لأنه منح ألمانيا الجنوبية الإستقلال ، فقام بسمارك بتشكيل إتحاد ألمانيا الشمالية بعد عام من انتصار سادوفو 1867م. واضعا بذلك لبنة في اتجاه تحقيق ألمانيا للوحدة فكان دخول في صراع مع نمسا أمرا محتوما.

6) الحرب البروسية الفرنسية1870م – 1871م:

كانت لنتائج معركة سادوا أثر في نفوس الفرنسيين ونابليون الثالث حيث أحسوا بخيبة أمل وأنهم خدعوا من طرف بسمارك وقد تحدث شاروبدون وزير الحرب الفرنسي عن معركة سادوا بقوله (إن فرنسا هي التي هزمت في سادوا).

ووصف السياسي الكبير تيير تلك المعركة بقوله (إن ماحدث لهوأعضم كارثة لفرنسا نكبت بها خلال أربعمائة عام.)[39].

فكان انتصار سادوفا بمثابة هزيمة غير مباشرة لفرنسا، وجد فيها بسمارك خطوة أخيرة لتوحيد ألمانيا لأن فرنسا أصبحت هي الوحيدة المناوئة للوحدة فانتظر بسمارك أي حدث من شأنه أن يجر فرنسا للحرب.

[38]) نور الدين حاطوم، مرجع سابق، ج3، ص:57.

[39]) عبد الفتاح أبو عليه إسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، رياض، 1993، ص:339.

فاستغل طلب نابليون الثالث من بسمارك الحصول على جزء من الأراضي الألمانية فروج له في الأوساط الألمانية، فأظهر بذلك نابلون كعدو للأمان وطامع في توسيع أملاكه على حساب الأراضي الألمانية فتأججت المشاعرالقومية الألمانية ورأوا في بروسيا مدافعا عن الأمة الألمانية.

وجاءت القضية العرش الإسباني 1868م، بعد سقوط ملكة إزابيلا فأيد بسمارك ترشح الأمير ليوبولد هوهنزرلرن وكان هذا الأمير يمت بصلة قرابة مع ملك بروسيا غليوم ، ورأت فرنسا في ذلك تهديدا لها فطلبت من بروسيا بسحب هذا المقترح.

وقد استغل بسمارك أحد البرقيات عرفت باسم برقية إيمز بحيث جعل سفير فرنسا فيها مهانا من طرف الملك البروسي، فكانت ردة فعل الفرنسيين شعبية طلبت بإعادة الكرامة لدولتهم فأعلنت فرنسا الحرب على بروسيا في 14 يوليو 1870م، فدارت معارك عنيفة في عقر دار فرنسا انتهت بهزيمة فرنسا وأسر نابليون الثالث فنشبت ثورة بفرنسا وأقيمت حكومة الدفاع الوطني وبذلك سقطت الإمبراطورية الثانية وأقيمت الجمهورية الثانية واضطرت فرنسا لعقد صلح فرانكفورت مع بروسيا في مايو 1871م.

فكانت شروط المعاهدة قاسية على فرنسا ، ولم يكن للفرنسيين سوى الرضوخ للأمر الواقع والقبول بشروط المعاهدة ومن أهم بنودها :

- ضم الألزاس والورين لألمانيا وتخلي فرنسا عن ميتز وستراسبورغ.
- طلب طلب بتعويضات مالية باهضة مقابل خروج الألمان من فرنسا وتم انسحابهم سنة1873م.

فكان لهذا النصر أصداء مدوية في ألمانيا واعتبرت بمثابة تمهيد الطريق أمام الوحدة الألمانية ، فكتبت الصحف الألمانية تقول *أخيرا أصبحنا قاب قوسين من تحقيق الدولة القومية الألمانية ، يمكننا أن نكون ألمان كما كان اسلافنا من قبل.[40]

7) تأسيس الرايخ الثاني:

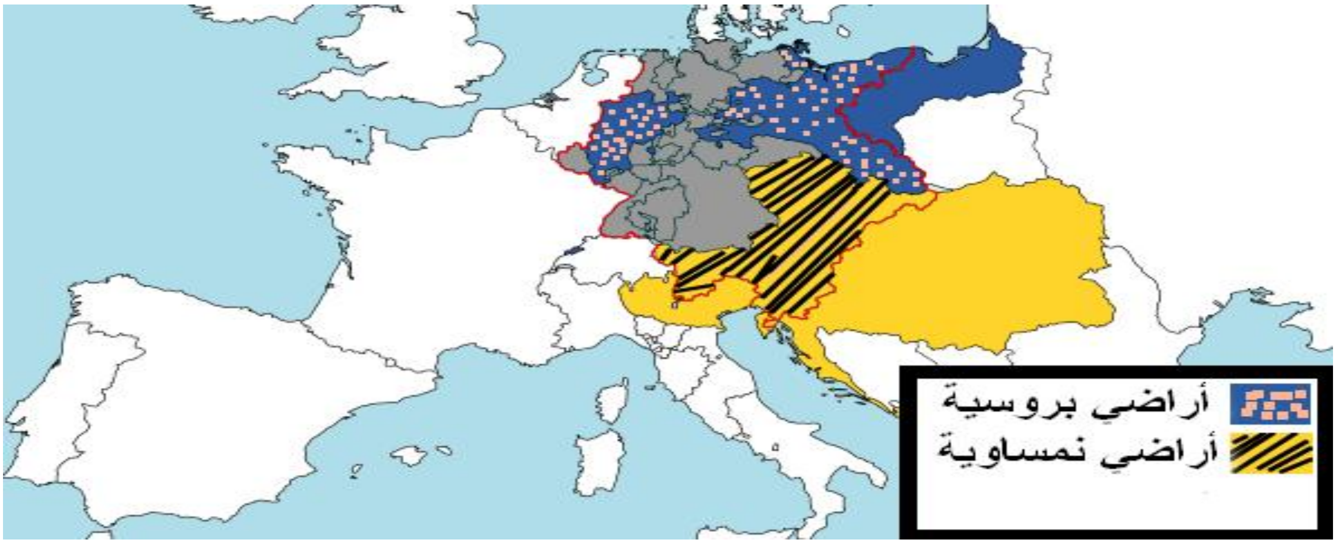
بعد انهزام فرنسا في الحرب أصبح حلم الإتحاد الألماني حقيقة وأعلن قيام الإمبراطورية الألمانية في بهو المرايا بقصرفرساي وبدأت الولايات الألمانية الجنوبية ، تعلن دخولها في الاتحاد الألماني الشمالي فكان ذلك نصرا لبروسيا.

وبسمارك الذي وصل إلى مبتغاه من خلال اعتماده سياسة الدم والحديد ، فكان لبروز الروح القومية دور في مشاركة الولايات الألمانية الشمالية والألمانية الجنوبية ضد الغاصب الفرنسي

فبعد أن ضيع ملك بروسيا فرصة الاتحاد عام 1849م، (بعد أن جاء من نواب الشعب لأن روسيا والنمسا أجهضت هذا الإتحاد فاضطر الملك البروسي للتراجع).

[40]) عبد الرؤوف سنوء، القومية الألمانية وتجلياتها،ص:12.

فجاءت سنة 1871م، فنودي فلهلم الأول إمبراطورا لألمانيا فتأسست بذلك دولة ألمانية من 25 ولاية اتحادية منها الأزاس واللورين ، واحتفظ ببعض الامتيازات الدستورية ، فلم يكن الرايخ الألماني على النموذج الفرنسي ولا البريطاني وإنما اكتسب صبغة ملكية دستورية وبذلك حققت ألمانيا وحدتها.



المحور الثالث: القومية الإيطالية و دورها في مسار الوحدة:

لقد وصف "ميترنيخ" ايطاليا بأنها (مجرد مصطلح جعرافي) وهذا ليس صحيحا، فهناك مقومات معينة للقومية الإيطالية. فشبه الجزيرة الإيطاليةلها حدودها الجعرافية و تسكنها أجناس لها أوصاف و مقوماتها التي تميزها عن من حولها . أما الفوارق بين أهل الشمال مثلا و أهل الجنوب، أو بين سكان السواحل وسكان المدن الداخلية فلا تتعدى الإختلافات الإقليمية المعروفة في أي بلد ما .فيمكن القول بأن شبه الجزيرة الإيطالية يسكنها جنس واحد يدسن بدين واحد وله لغته و له عاداته و تقالده المشتركة و الخاصة[41].

ومن مقومات القومية الإيطالية كما ورد في تعريف هكسلي وهدون للقومية كونها (مجتمع ألف بينه اعتقاد مشترك) و هذا الإعتقاد قد يكون له امتداد تاريخي قد يتجسد في الإمبراطورية الرومانية التي كانت روما بوتقة اشعاعها و انتشارها، أو قد يكون له امتداد ديني يتجلى في الديانة المسيحية ذات المذهب الكاثوليكي، أو قد يكون كذالك عبارة عن امتداد جغرافي محض و هو الشعور المشترك بالإنتماء إلى رقعة جعرافية معينة و هي شبه الجزيرة الإيطالية، أو على المستوى اللغوي المتجسد في النطق باللغة الإيطالية، نهيك عن الشعور بالإنتماء إلى أصول معينة. أو حمل مشاعر عدائية مشتركة بين الإيطاليين ضد جيرانهم، أو عكس ذالك كما هو الحال بالنسبة لبعض الدول في وقتنا الراهن .

شهدت الحركة الإيطالية في طريقها الطويل مسلسلا متصل الحلقات من العقبات و التحديات الذي أخر تحقيق الوحدة الإيطالية، وذالك راجع في الأساس إلى جملة من العوامل سواءا على المستوى السياسي من جهة، أو على المستوى الإجتماعي من جهة أخرى.

---

[41]) نفس المرجع، ص 181.

فمؤتمر فيينا 1815م حرص على احتفاظ الدول التي انتصرت على بونابرات بمصالحها في ايطاليا من أجل الحفاظ على مصالحها في الأجزاء الخاصة بها، وقد كان يهم هذه الدول بقاء هذه التجزئة ودوامها في شبه الجزيرة .و بمقتضى التقسيم الذي أقره مؤتمر فيينا في ايطاليا سبع دول من بينها :

- مملكة نابولي و تضم صقلية.
- مملكة بيدمونت و تشمل سردينا.
- مملكة لمبارديا التي كانت خاضعة خضوعا تاما مباشرا للإمبراطورية النمساوية.
- الولايات البابوية .
- هذا فضلا عن الأقسام الأصغر حجما والأقل سكانا في شبه الجزيرة الإيطالية المجزئة أنذلك.

و قد لمس الإيطاليون فوائد الوحدة من الناحية الإقتصادية و غيرها في ظل النظام الذي وضعه نابليون لبلادهم. كما أنهم بلا شك تأثروا بالمبادئ التي كانت شعار الثورة الفرنسية و شرارة إندلاعها و المتمثلة في الحرية و المساواة و العدالة و ما إلى ذالك من الحقوق الخاصة و العامة من رزنامة حقوق الإنسان.

وقد حرص الزعيم النمساوي ميترنيخ على أن تكون لبلاده النمسا السلطة المباشرة على دول شبه الجزيرة الإيطالي، ولم يكن من السهل أن يخضع الإيطاليون للنظام الرجعي المستبد الذي أرادته النمسا. وقد عرفت ايطاليا غداة مؤتمر فيينا جوا من الفساد و الرشوة و الإنحلال و تراجع الحالة الإقتصادية للبلاد. فضلا عن انتشار الأمراض كالملاريا بالإضافة إلى عودة البابوية لسياستها الرجعية التي تدعم امتيازات الكنيسة و كبار رجال الدين الذين يقفون في وجه الأراء و المبادئ الحرة.

إلا أنه في وسط هذا الجو. وجدت بارقة أمل في الجامعات المتعددة التي خرجت أعدادا غفيرة من المختصين في مختلف المجالات من المهندسين و الأطباء و القضاة و الكتاب و غيرهم.[42]

❖ مسار الوحدة القومية الإيطالية:

سلكت ايطاليا في شق طريقها لتحقيق الوحدة الوطنية مراحل متعددة، ولم تحقق بذالك وحدتها دفعة واحدة بل عن طريق مجموعة من الفترات المتناثرة و المتفرقة.

ولعل من جملة الحركات التي مرت بها الوحدة الإيطالية نذكر مايلي :

✓ ***الحركات المحلية:***

بدأت هذه الحركات إبان عودة الحكومات الرجعية لإيطاليا بعد مؤتمر فيينا عام 1815م. فقد برزت في حركات التذمر بين أفراد الطبقة البرجوازية من المثقفين و خريجي الجامعات لكنها كانت حركات مثناثرة و متفرقة، و إن كانت أهدافها واحدة – لكنها تفتقر إلى الوحدة التي تربط بينها و توحد كفاحها.

✓ ***حركات الجمعيات السرية:***

كان من الطبيعي أن تقف السلطات الحاكمة و الدول الرجعية، موقفا حازما ضد الإضطرابات التي أثارها العناصر المثقفة الوطنية القومية، لذالك اتجهت هذه العناصر للعمل السري في الخفاء.

---

[42]) نفس المرجع السابق، ص182.

وفي مقدمة الجمعيات التي عملت في هذا المجال، و التي لعبت دورا هاما في الوحدة الوطنية نذكر " جمعية الكاربوناري" أو بالأحرى جمعية الفحامين، وقد تألفت هذه الجمعية من المشتغلين بحرق الأخشاب لإنتاج الفحم في غابات كلابريا (Calabria)، وكان مقرها الرئيسي في نابولي، و وصل عدد المنظمين إليها في عام 1816 حوالي 20000 مناضل، و انتشرت من نابولي إلى مختلف البلدان الأخرى في ايطاليا خاصة الخاضعة مباشرة للنمسا و الولايات البابوية.

و قد حددت هذه الجمعيات أهدافها في ما يلي:

- طرد النمسا و عملائها من شبه الجزيرة الإيطالية.
- العمل على توحيد ايطاليا و إقامة حكومة دستورية.

و لسوء الحض لم تستطع هذه الجماعة السرية، أن تقوم بعمل جماعي قوي في كل من ايطاليا لكنها قادت ثورتين هامتين، إحداهما في عام 1830م. و الثانية في عام 1831م. وقد شجعهم في الثورة الأولى ثورة الإسبان عام 1820، و على الثورة الثانية ثورة الفرنسيين في عام 1830 التي ترتب عليها في فرنسا تولي "للويس فيليب" العرش كرغبة الشعب، و أن ثورة الإيطاليين لم يترتب عنها أكثر من لفت الأنظار إلى حركة التذمر التي تسود الشعب الإيطالي[43].

✓ ***حركة ماتزيني(Matcini) :***

وتنتسب إلى ماتزيني الذي ولد في جنوة في عام 1805م، وكان أبوه يعمل طبيبا بجامعة جنوة ، تلقى ماتزيني تعليمه الجامعي بنفس المدينة حيث حصلعلى دكتوراه في القانون.

و في عام 1828م، بدأ اسم ماتزيني يلمع حين كتب عدة مقالات في جريدة " دليل جنوة " تعرض فيها للأوضاع السياسية في ايطاليا. حين قامت الثورات بها عام 1830م. إتهم باشتراكه مع الجمعيات الكاربوناري في اثارة الجماهير فقبض عليه، و سجن لمدة ستة أشهر، ثم أفرج عنه ، و وضع تحت المراقبة. لكنه فر إلى جزيرة كورسيكا ومنها إلى مرسيلي، و هناك أسس جمعية أطلق عليها إسم " ايطاليا الفتاة" التي تضم تحت لوائها عدد من رجال القانون و الفكر و الأطباء وغير ذاللك من الفئات المثقفة.

و قد طلب ماتزيني بأن يهتم الكتاب و الأدباء الإيطاليون بالأدب القومي الذي يدعم الوحدة الوطنية، كما طالب بوضع برامج مفصلة للإصلاحات اللازمة في التعليم و التشريع وغير ذالك من مجالات النشاط و العمل الوطني. وكان ماتزيني مؤمنا بالعمل الجماهيري مدركا لقدرتها على طرد الغزاة الأجانب و تحقيق الوحدة الوطنية – كانت له فلسفة سامية لفكرة القومية و الوطنية- لكنه رغم تدينه و إتخاذه " الله و الشعب و الإنسانية " شعارا لمبادئه . فقد نظر للكنيسة الإيطالية على أنها عقبة في طريق تحقيق الوحدة.

وقد قاد هو و أعوانه عدة حركات ثورية من عام 1833م إلى عام 1845م لكنها باءت بالفشل و إن تركت أثرها في الحركات المستقبلية التي أدت إلى تحقيق و حدة إيطاليا.[44]

[43]) المرجع نفسه، ص 183/182

[44]) المرجع نفسه،ص184.

- ***حركة المعتدلين (جيوبرتي و دا زجليو) Giobeny – Da zgilio.***

تتميز هذه الحركة باعتقادها أن في الإمكان تحقيق الأهداف القومية و الوطنية دون اللجوء للعنف أو الثورة، وقد برز في هذا المجال إثنان هما " جيوبرتيGiobeny و دا زجليو Da zgilio .

وقد كان جيوبرتي من رجال الدين في بيدمونت و كانت له فلسفة خاصة . استنكر العمل الثوري ونادى بأن المحبة يجب أن تسود بين جميع الناس وقد أصدر في عام 1843م كتابا بعنوان " زعامة الإيطاليين الخلقية و المدنية " ، أبرز فيه دور الرومان قديما كرواد للعالم في نشر مبادئ العدل وسيادة القانون في العالم و دور مدينة روما حين انتشر فيها المسيحية و أصبحت ديانة الدولة الرسمية في تلقين دروس المحبة و السلام.

وقد وضع تصورا لإيطاليا الموحدة في شكل (اتحاد كونفدرالي) من عدة دول بزعامة البابا لأن الكنيسة من جهة نظره – وهو من رجال الدين كما ذكرنا – جدير بقيادة الإيطاليين في طريق الوحدة و القوة.

و هكذا تميزت أفكار جيوبرتي و أراؤه بإعتقاده في قيادة الكنيسة للحركة القومية، ورفضه للعمل الثوري و العنف كوسيلة لتحقيق الوحدة .

أما "دا زجليو" – فقد كان فنانا اشتهر برسم اللوحات و كتابة الكتب و المقالات و القصص و له عدة كتب (1798-1876م) ومن كتبه الشهيرة كتاب بعنوان (الحوادث الأخيرة في رومانا) ، تعرض فيه لأحداث الثورة التي قامت في اقليم رومانا Romana و هو من الأقاليم التابعة للبابوية في عام 1845م . وقد انتقد السياسة التي تتبعها البابوية في الأقاليم الخاضعى لها و في مواقفها من الثورة و نصح الإيطالين بأن يلتفوا حول بيدمونت بإعتبارها القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة.[45]

- ***حركة الألبرتين :***

وتنتسب إلى شارل ألبرت Charies Albert ، أمير بيدمونت فقد لقيت أراء دا زجليو Da zgilio صدى في نفوس الكثيرين فتكون حزب الالبرتين من أنصار بيدمونت و أيدها شارل ألبرت و بدأ يظهر كقوة لموازنها في قيادة الحركة القومية و الوطنية في ايطاليا.

- ***حركة بيدمونت تتزعم حركة الوحدة في ايطاليا:***

كانت سنة 1848م سنة فاصلة في تاريخ الوحدة الإيطالية ففي هذه السنة نشبت الثورة في فرنسا و امتدت أثارها إلى النمسا حتى أن ميترنيخ اضطر للفرار من بلاده و كانت لهذه الأحداث بالطبع أثارها في ايطاليا.

فقد قامت الثورة في لمبارديا ضد النمسا، و أجبر الثور الإيطاليون الامية النمساوية بميلان على الجلاء، كما اقتفت البندقية أثر ميلان، فطرد المواطنون النمساويون. و أعلنوا قيام الجمهورية و انتشرت الثورة في مختلف المقاطعات الإيطالية و شجع هذا ألبرت شارل أمير بيدمونت على اعلان الحرب في النمسا.

[45]) مرجع سابق، ص185.

لكن في اللحظة الحاسمة دب الإنقسام بين الإيطاليين، فمنهم مؤيدون لأمير بيدمونت ومنهم دعاة لجمهورية ماتزيني، كما نادى أخرون من أنصار جيوبرتي بزعامة البابا، و أتاح هذا الإنقسام الفرصة للجيش الغازي النمساوي استعادة مراكزه و انقض على جيش بيدمونت و أنزل به هزيمة نكراء في 25 يوليوز 1848م . و اضطر شارل ألبرت لعقد هدنة تعهد بموجبها بإعادة لمبارديا إلى النمسا.

لكن شارل ألبرت رأى أنه من العار أن ينفذ ما تعهد به فتنازل لإبنه فيكتور ايمانويل Victor Emmanuel، و انسحب هو من الميدان تاركا ابنه ليواجه الموقف الصعب .

وقد أظهرت هذه الأحداث المتتالية السالفة الذكر مجموعة من النتائج و التداعيات و الأفكار التي من أهمها :

- ايقان الوطنيون الإيطاليون أنه لايمكن الإنتصار على أعدائهم إلا إذا وحدوا صفوفهم تحت زعامة واحدة تقودهم ضد أعدائهم المتربصين بهم.
- إثبات البابوية بتخليها عن مساندة الثورة أنها لايمكن أن تقوم بهذا الدور القيادي.
- رفع سياسة الأمير شارل ألبرت، و تضحيته بعرشه في سبيل المصلحة القومية من مركز و مكانة ابنه و خليفته فيكتور ايمانويل فتطلعت له الأنظار ليقود الحركة القومية.[46]

✓ ***<u>فيكتور ايمانويل و كافور يحققان الوحدة:</u>***

بعد أن أصلح فيكتور ايمانويل الأوضاع الداخلية في بلاده، و إطمأن إلى قوة جيشه اتجه إلى مواجهة العدو الحقيقي لبلاده وهو النمسا، و قد أتاح له القدر سندا قويا في شخص وزيره الأول "كافور Cavour" . وفي عام 1858م عقد كافور مع الإمبراطور نابليون الثالث معاهدة سرية اتفق فيها على أن :

- o تظم لمبارديا و البندقية إلى بيدمونت.
- o تظم سافوراى ونيس إلى فرنسا.
- o تبقى الولايات الوسطى و الجنوبية و أملاك البابا مستقلة.
- o يتكون اتحاد ايطالى من كل الولايات تحت زعامة البابا.
- o تعاون فرنسا و بيدمونت ضد النمسا إذا بدأت النمسا بالعدوان على بيدمونت.

و مع أن هذه الشروط لم تكن تحقق أطماع الإيطاليين و أمالهم إلا أن نقض هذه الشروط جاءت من قبيل الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث الفرنسي.

فقد عمد كافور بعد عقد هذه المحالفة إلى التحرش بالنمسا مما دفع هذه الأخيرة إلى إعلانالحرب على بيدمونت و مهاجمتها،و تنفيدا لشروط المعاهدة السالفة الذكر دخلت الجيوش الفرنسية في صف بيدمونت، و أحرز الإثنان عدة انتصارات على جيوش النمسا، لكن توقف نابليون عن الحرب و عقده مع النمسا صلحا منفردا« صلح زيورخ » في عام 1859م ، و بموجب هذا الصلح تقررما يلي:

[46]) المرجع نفسه، ص 187-188.

1) تحتفظ بيدمونت بلمبارديا.
2) تحتفظ النمسا بالبندقية.
3) يقوم اتحاد في ايطاليا بزعامة البابا.
4) يعود للدوقيات الإيطالية الشمالية حكامها السابقون.

و لعل من جملة الأسباب التي دفعت الإمبراطور نابليون للتوقف عن الحرب إلى جانب حليفته بيدمونت ضد النمسا هو :

- الخسائر الفادحة التي تعرض لها الجيش الفرنسي.
- خوف فرنسا من قيام دولة موحدة في ايطاليا بزعامة بيدمونت، تكون مصدر خطر على فرنسا ذاتها
- استنجاد النمسا ببروسيا.

وقد قبل فيكتور ايمانويل صلح زيورخ مضطرا، و اعتبره خطوة في طريق الوحدة المنشودة لكن تنفيد شروط صلح زيورخ كلها لم يكن متيسرا، فقد ثار الوطنيون في الدوقيات الشمالية ورفضوا عودة حكامهم السابقين و أعلنو انضمامهم إلى بيدمونت.

و لما تأكد كافور من عطف بريطانيا على مطالب الدوقيات الشمالية و معارضتها لعودة حكامها الرجعين، أجري إستغتاء في هذه المقاطعات الثائرة في شأن الحكومة التي يرغبون فيها، ولما أعلنت الأغلبية رغبتها في الإنضمام إلى بيدمونت أعلن ايمانويل في 1860م نزوله عند رغبة الوطنيين القوميين و ضم هذه المقاطعات، ولم تحرك النمسا ساكنا . وهكذا تحققت وحدة ايطاليا الشمالية.

و بذالك إذن بدأت ايطاليا في مشروعها الإتحادي بوضع اللبينة الأولى التي ستتبعها انضمام باقي الأجزاء الإيطالية، كالبندقية في عام 1866م . حين قامت الحرب بين النمسا و بروسيا و انهزمت النمسا في موقعة سادوا Sadowa . و بذالك عادت البندقية إلى ايطاليا الأم .

وكذالك الحال بالنسبة لروما حين قامت الحرب بين بروسيا و فرنسا في عام 1870م اضطرت خلالها فرنسا بعد هزيمتها لسحب قواتها من روما فدخلتها الجيوش الإيطالية و ضمتها لإيطاليا. و انتقلت عاصمة الدولة من تورين Torin إلى روما .

ولم تبقى إلابعض المناطق المتطرفة في الشمال كانت مثار نزاع بين ايطاليا و النمسا (منطقة التيرول) . وقد ضمتها ايطاليا بعد الحرب العالمية الاولى، إثر هزيمة النمسا رفقة دول المحور، و انضمام ايطاليا لصفوف الحلفاء المنتصرين .

و بعد اتمام الوحدة تفرغ الإطاليون لتنظيم شؤونهم الداخلية و حل المشكلات التي كانوا يعانون منها أنذالك.[47]

[47]) مرجع سابق، ص: (188-189-190-191).

الخاتمة

و في الختام ومن خلال ما سبق تبين لنا ماذا تعنيه كلمة القومية التي ارتبطت في أوروبا بكلمة الحركة فكانت محرك أوروبا في العصر الحديث، وقد تبين لنا ذالك من خلال المبحث الثاني الخاص بالحركات القومية الأوروبية الذي وقفنا فيه عند الثورة القومية لفرنسا مع محاول استجلاء ذالك التأثير الذي انتشر في دول أوروبا.

و ساهم بشكل كبير في يقظة أممها و احياء الشعور القومي كما هو الحال بالنسبة لمسار الوحدة الإيطالية الذي تتبعناه في بحثنا هذا بدراسة كرونولوجية بدءا بالحركات السرية الإيطالية مرورا بالجمعيات الكربونارية الخاصة بالفحامين.

و كذا حركة الألبرتين نسبة إلى شارل ألبرت، و انتهاءا بحركة المعتدليين و كذا حركة فيكتور ايمانويل ووزيره كافور اللذان لعبا دورا رياديا في تحقيق هذه الوحدة .

وقد تطرقنا كذالك في إطار دراستنا هذه إلى الوقوف عند أهم المراحل التي ساعدت بشكل كبير المانيا في تحقيق و حدتها، و أشرنا إلى ذالك الدور الذي لعبه رجل الحديد و الدم بيسمارك في تحقيق هذه الوحدة التي كان الألمان يحلمون بها في القدم و قد تحققت بعد صولات و جولات و فترات ضعف وقوة تحقق المراد.

و قد عرجنا في بحثنا هذا إلى توضيح مكامن القوة و الضعف في الفكر القومي و ذالك بدراسة بعض سلبياته و كذا بعض الإيجابيات التي يحققها.

وقد حولنا ما أمكن تبيان الأبعاد و الإمتدادات التي تحضى بها القومية على المستوي السياسي و الإقتصادي و كذا الجغرافي، نهيك عن الإمتداد الفكري الثقافي الذي يمثل البعد الأخطر للفكر القومي .

و نخلص في الأخير إلى أن الحركات القومية بأوروبا في أواخر العصر الحديث و في العصر المعاصر، لعبت دورا مهم في تغيير الخريطة السياسية لأوروبا وتعزيز وتقوية الشعور بالإنتماء إلى الوطن. وتقوية الروابط المشتركة بين أبناء الوطن الواحد سواءا أكان الأمر على المستوى اللغوي أو الجغرافي المتجسد في الأرض.

المراجع و المصادر المعتمدة

- أشرف صالح محمد السيد، أصول التاريخ الأوروبي.
- بويد شيفر، القومية –عرض تحليلي- ، ترجمة عدنان الحميري .
- ساطع الحصري، ماهي القومية،دار العلم للملايين.
- جورج حنا، معنى القومية العربية ، دار الثقافة .
- منيف الرزاز، تطورمعنى القومية ، دار الملايين.
- ساطع الحصري، آراء و أحاديث في القوميةالعربية.
- عبد الكريم أحمد، القومية و المذاهب السياسية، الهيئة المصرية العامة لنشر.
- لويس عوض، دراسة في الحضارات ، دار المستقبل.الطبعة الأولى.1989م.
- نور الدين حاطوم، اليقضة القومية، الجزء الأول.
- زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن 19م، دار الفكر العربي.
- نور الدين حاطوم،يقضة القومية، الجزء الثالث.
- إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، مطبوعات جامعة الكويت.
- فرانسوا جورج ديفوس،رولان ماركس، ريمون بوادوفان، موسوعة تاريخ أوروبا من عام 1789م حتى أيامنا، الجزء الأول، الطبعة الأولى.
- عبد الرؤوف سنوء ، القومية الألمانية وتجلياتها الوحدوية و العنصريةو الإمبريالية.
- هاني جودة ، الثورة الفرنسية- نظرة تحليلية.
- عبد العظيم رمضان،تاريخ أوروبا في العصر الحديث- من ظهور البرجوازية إلى الحرب الباردة .
- عبد العزيز عبد الغاني ابراهيم ، محاضرات في تاريخ أوروبا بين النهضة و الثورة الفرنسية.
- نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية بأوروبا، الجزء الثاني.
- عبد الفتاح أبو علي اسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوروبا الحديث و المعاصر،دار المريخ للنشر.

ملاحظة " وردت بعض أسماء الأشهر في الإحالة حسب البلدان العربية"

أسماء الأشهر في البلاد العربية

يناير	كانون الثاني
فبراير	شباط
مارس	آذار
أبريل	نيسان
ماي	أيار
يونيو	حزيران
يوليوز	تموز
غشت	آب
شتنبر	أيلول
أكتوبر	تشرين الأول
نونبر	تشرين الثاني
دجنبر	كانون الأول